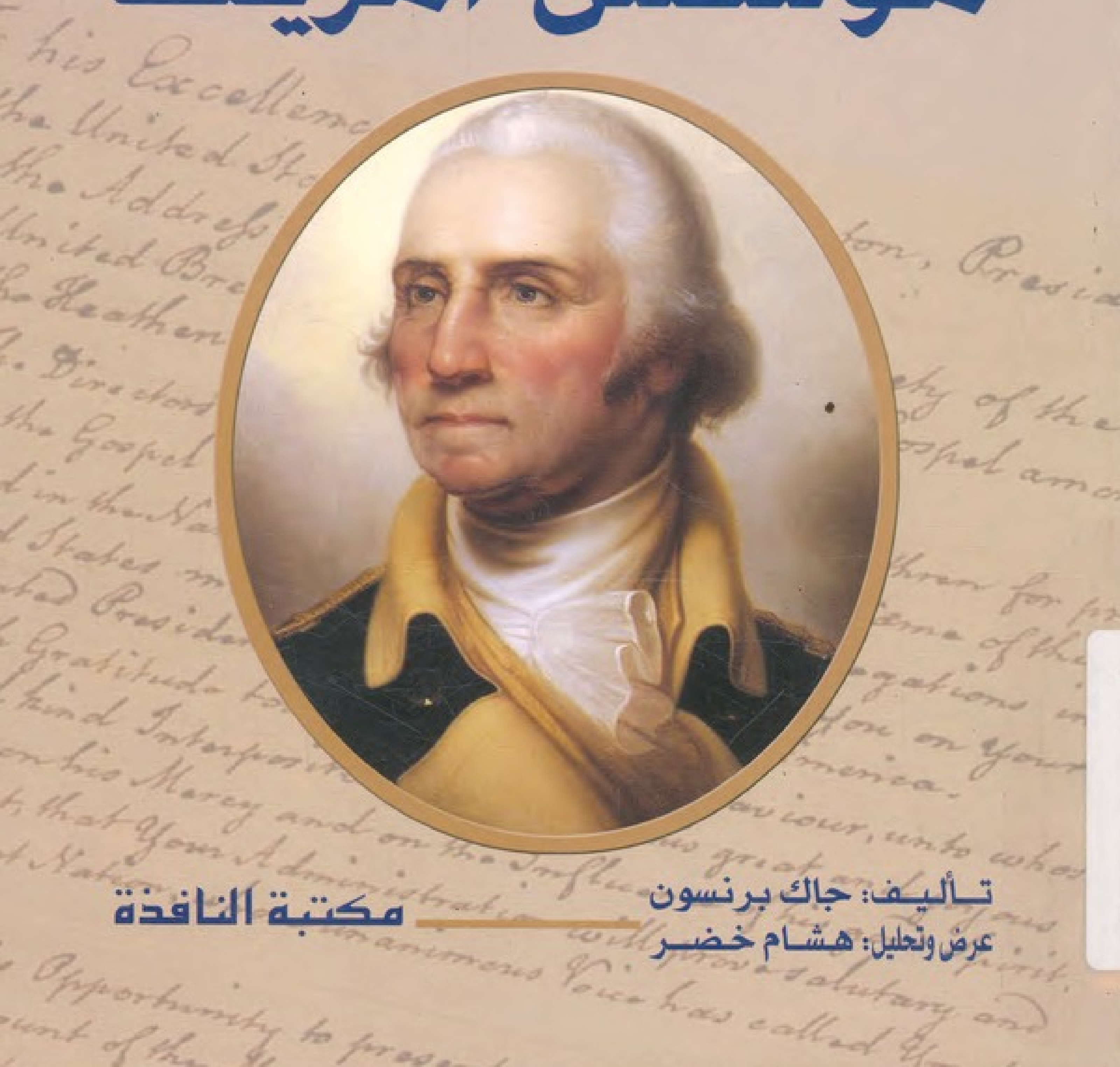
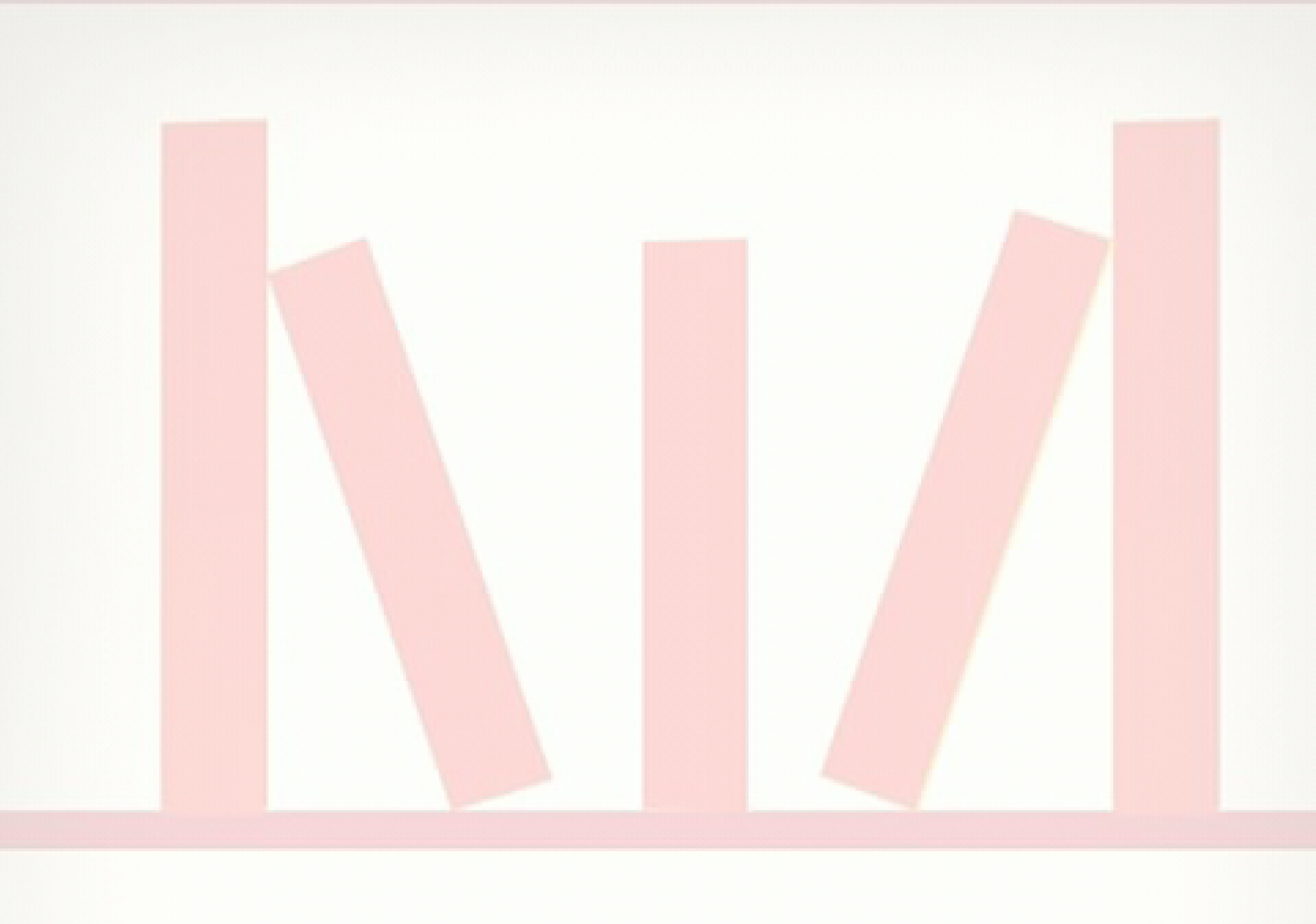
شخصيات أثرت في التاريخ

جورج واشنطن
مؤسس أمريكا



تأليف: جاك برنسون
عرض وتحليل: هشام خضر

مكتبة النافذة



جورج واشنطن
مؤسس أمريكا

تأليف: جاك برنسون
عرض وتحليل: هشام خضر

مكتبة النافذة

جورج واشنطن مؤسس أمريكا

هشام خضر

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

رقم الإيداع ١٣٧٧٢ / ٢٠٠٧

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٢

alnafezah@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سيظل جورج واشنطن - الرجل الذى استطاع أن يحرر الولايات المتحدة الأمريكية من قبضة الاستعمار الإنجليزى - صفحة ناصعة ومضيئة فى كتاب تلك الإمبراطوريه الكبرى التى أضحت مترامية الأطراف، وتسيطر على اقتصاديات العالم بالعقل والقوة والعلم والتكنولوجيا.

لقد كان جورج واشنطن رائدا فى إرساء قواعد الحرب وترسيخ معالم الديمقراطية التى تعتز بها الولايات المتحدة وتتفاخر بها أمام الأمم، وتصدرها للعالم من حولها فى منظومة رائعة أضحت مثار حسد وحقد وغيرة من كافه شعوب المعمورة.

إن جورج واشنطن يستحق عن جدارة أن تسمى عاصمة الإمبراطورية الكبرى باسمه، وربما قد يكون ذلك أقل مما يستحق هذا الرجل العظيم الذى بدأ حياته شابا بائساً يعانى ضيق ذات اليد، ويشكو شظف العيش، ويحلم بكسرة خبز وشربة ماء من عرق جبينه.

لقد بدأ هذا الرجل كفاحه مساحا للأراضى حتى حظى بشهرة واسعه النطاق فتحت الأبواب على مصراعيها حتى تمكن من فرض موهبتة وعبقريته فى تلك المهنة التى تتطلب قدرات عقلية ومهارة وذكاء، آنذاك كان جورج واشنطن لا يميل إلى الوصول إلى السلطة بل كان زهداً رافضاً لا تجنح لها نفسه، وتأبى أن تخضع لأضوائها واطماعها، ومن ثم كان محط إعجاب وتقدير واحترام من شعب بلاده الذى رشحه قائدا له يقود حرب الاستقلال والتحرير والانطلاق إغلال وقيود

المستعمر الإنجليزى الذى كان قد فرض ظلمه وطغيانه واستبداده على جميع الولايات المتحدة الأمريكية.

كان جورج يرغب فقط فى إحراز النصر لوطنه المحتل، وبذل قصاري جهده، ونذر نفسه من أجل عزة وكرامة وطنه الذى كان يرزح تحت نيران الاستعمار.

قاد جورج جيش بلاده الذي تألف من المتطوعين والجيش الوطنى، وكثيرا ما تعرض للهزائم المخزية على يد المستعمر البريطانى، لكنه استطاع أن يحرز النصر فى نهاية المطاف بعد أن التفت حوله جميع طوائف الأمة تؤازره وتدعمه وتسانده، وتشد من أزره أملاً فى غدٍ أفضل ومستقبل أكثر إشراقاً، وهو ما أقربه العالم أجمع.

إن جورج واشنطن نموذج إنسانى يستحق الإعجاب والتحية لكل من يتطلع إلى حياة كريمة وأمة حرة مستقلة.

الفصل الأول
نشأة جورج واشنطن

فى داخل مزرعة ضخمة تحيط بها الغابات والأراضى البرية من كل جانب فى مقاطعة «وستمورلاند» إحدى مقاطعات ولاية فرجينيا، وفى صباح الثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٧٣٢.

كان الأب أوجستين واشنطن علـى موعد مع وليده الثالث[1] الذى كـان ينتظره على أحر من الجمر بعد زواجه من السيـدة مارى بول التى كانت تصرخ من قسوة المخاض، واقتراب ساعة خروج وليدها إلى الدنيا.

وفى تمام الساعة العـاشرة تهللت أسارير الأب الذى كان يعتـصر ألما وحزنا على صراخ زوجته وصيحاتها المتوالية والمدوية لتختلط معها صرخات وليدها الذى تعالت صرخـاته معلنا قدومـه، ليرقص الأب طربا وفـرحا بقدومـه السعيـد والراحة التى استردتها زوجته بعد صراع مع آلام الولادة.

بعد سـاعات راح الأب يـبحث عن اسم لوليـده الذى ملأ عليـه الدنيا سـعادة وبهجة، وحار الأب فى تسمية مولوده حـتى اضطر أن يتشاور مع زوجته فى اختيار اسم يناسب وليدهما، وكان أن اقتـرحت الأم على زوجها اسم جورج تيمنا بالملك البريطانى جورج. . عـقدت الدهشة ملامح الأب بعض الوقت وسـرعان ما أبدى موافـقتـه بعد أن راح يردد همـسًا «جورج واشنطن. . جورج واشـنطن. . جورج واشنطن». وحيـن تبين للأب ملائمـة الاسم راح يعانق زوجـته على ذكـائها فى

(١) كان الرجل متزوجا من سيدة أخرى ماتت وقد أنجبت لـه لورانس وأوستن، الأول ولد فى عام ١٧١٨ والثانى فى عام ١٧٢٠.

اختـيار مثل هذا الاسم رغـم عدم شيـوعه بين آل واشنطن الذين يتـمسكون منذ القدم بأسماء محددة أمثـال: جون تيمنا بالجد الأول الذى هاجر من إنجلترا وأسس أسرته الكبيـرة فى الولايات المتحدة الأمريكيـة كأحد أشهر مـزراعى التبغ فى ولاية فرجينيا، أو تشارلز واوجستين ولورانس، وإدوارد، وهنرى، وريتشارد وهى أسماء تعد الأكثـر أنتشاراً داخل البلاد، أما اسم جورج فـلم يكن من تلك الأسماء التى يتمـسك بها الأمـريكيون على اعتـبار أنهـا من سمات وصـفات العائـلات الملكية والأسرة البريطانية، أى أنها ملك للطبقات الحاكـمة والأرستقراطية رغم عدم وجود تشريع يمثل ذلك لكنها الطبـقية المتطرفة التى أوجدتها الرأسمـالية الإنجليزية والملكية العتيقة.

بعد مرور عامين على ميلاد جورج واشنطن، رزقت أسرته بطفلة سميت (بيتى) وكانت تشبه جورج إلى حد كبير فى مـلامحه وصفاته، حتى خيل للبعض من فرط أوجه التشابه بينهما أنهما توأم!!

وبعد مـرور عامين آخرين على مـيلاد (بيتى) أنجبت الأم طفـلا يدعى (سام)، كان جورج فى تلك الأثناء يهوى ركوب الخـيل الذى تعج به المزرعة الشاسعة المطلة على نهر بوتامـاك، كما كـان تلاصق المزرعة بحافة النـهر مدعاة له لممـارسة فنون الصيد وعشقه وحرصه على مزاولته طوال ساعات فراغة.

ربما أدى ركوب الخيل المستمر إلى انتصاب قـامته التى كانت فارعة، ونمو جسده ذو البنيان القوى.

على أية حال لم يكن شقيقه سام هو آخـر عنقود تلك الأسرة السعيده، بل تبع هذه السلسلة من الأشقاء جون وتشارلى، حتى بات لجورج خـمسة أشقاء يغمرون البيت بالبـهجة والسعـادة وسط حفاوة بالغـة من الأب، ودفء من الأم التى كانت تحتويهم بحنانها ورقتها وعذوبتها.

فى أحد الأيام أقبل الأب أوجستين مبشرا أسرته بالعثور على مزرعة جديدة ومتميزة، وقد حان وقت الانتقال إليها، ومن ثم حزمت الأسرة متاعها وانتقلت بصحبة الأب إلى البيت المنشود الذى تحتضنه مزرعة ضخمة وشاسعة، ولا تقل عن تلك التى غادورها ، غير أن المزرعة الجديدة تطل على نهر رباهانوك، ويتميز البيت الذى تضمه تلك المزرعة بكثرة وتعدد حجراته ولونه الأحمر وموقعه المتميز، خاصة وأنه شيد على ربوة عالية تحيطها أشجار الغابات من كل جانب، صحيح أن هذا الانتقال الأسرى لم يكن الأول من نوعه لكنه كان الرابع بيد أن هذه هى المرة الأولى التى كان «جورج واشنطن» على يقين مما يدور من حوله، ومن هذا التحول المفاجىء فى محيط أسرته حيث كان فى مرحله تتيح له استيعاب ما يجرى أمام عينيه.

كان البيت الكبير الذى انتقلت إليه أسرة جورج يتألف من أكثر من تسع غرف فضلا عن الردهات الواسعة، وما يتبع هذا البيت الضخم من مخازن وأماكن رحبة لإعداد الطعام، ومعامل لتصنيع مشتقات الألبان ومنتجاتها، وأماكن المبيت اليومى لكلاب المزرعة وحظائر المواشي، وغرف مخصصة لتخزين المحاصيل الزراعية، وأخرى لمعيشة الحراس وعمال المزرعة.. وغرفة كبيرة الحجم خصصها الأب لاستقبال التجار والمزارعين بدلا من التكلف وإهدار الوقت عند إستقبالهم داخل البيت، وما يترتب على ذلك من إسراف وتبذير، كان الأب فى غنى عن مثل هذه الممارسة خاصة وأنه يعول أسرة كبيرة مكونة من سبعة أفراد يتطلبون نفقات باهظة لسد حاجتهم ومتطلباتهم التى لا تنتهى ولا تتوقف.

* * * *

المثل الأعلى لجورج

ولأن المزرعة كما سبق وأن أشرنا قد شيدت بمحاذاة نهر (رباهانوك) فقد عاود جورج ممارسة هواية الصيد التى سكنت نفسه واستقرت بها، وفى أثناء ذهابه ذات مرة بصحبة شقيقته بيتى للصيد وبينما كانا يجريان راح جورج المشاكس منذ نعومة أظفاره يقف متراقصا أمام شقيقته على منحدر معبر خشبى حتى يصل إلى مدخل إحدى السفن التى كانت راسية كعادتها بالقرب من المزرعة، وقبل أن يحط بقدميه على مدخل السفينة انزلقت قدماه ليسقط فى النهر متشبثا بالحياة، متمسكا بأهدابها بصراخه وصيحاته، ولولا أن صرخات شقيقته بيتى شقت عنان السفينة لكان جورج فى عداد الموتى؛ حيث هرول عمال السفينة وألقوا بأنفسهم فى البحر واستطاعوا بعد لحظات انتشال جورج الذى كان قد غمره الماء، وكاد النهر يبتلعه.

خرج جورج بصحبة عمال السفينة الذين كانوا له بمثابة طوق نجاة على الشاطىء مغشيا عليه وقد زوده أحدهم بقبلة الحياة لاستخراج ماء الموت من معدته عبر جوفه، ليسترد عافيته وتتحرك أعضاؤه بعد أن تجمدت وتسمرت، وبدا لناظريه جثة فقدت روحها ولم تعد تقوى على الحراك.

بعد أن انقشعت تلك الغمة التى داهمت جورج راح ينسج خيوط علاقة حريرية مع ربان السفينة وعماله، وقد شعر جورج بالامتنان الشديد إزاء هؤلاء الذين أنقذوه وأعادوه للحياة، ومن ثم لم ينقطع يوما عن زيارة السفينة ومجالسة ربانها الذى كان يرتدى ثيابا براقة تضفى عليه مهابة ووقاراً أخذت لب جورج وانجذب إليها انجذابا..

ولأن السفينة كانت كعادتها فى طريقها إلى سواحل انجلترا فقد راح الربان يقص على جورج خط سير الرحلة الطويلة والشاقة، بيد أن جورج لم يكن يبالى بعناء

الرحلة أو طول زمنها بل كـان تواقًا إلى خوضها ومـعايشتهـا ومن ثم تجلت صورة الربان فى أعين جورج وأصبـح منذ تلك الحادثة المروعة هو المثل الأعلى الذى بات يتراقص أمام عينيه ولا يبارحها إلا عندما يأوى إلى فراشه.

كانت السفينة قد اعتـادت على أن ترسو أمام مزرعة آل واشنطن لعدة أيام لنقل الحمولات الغـذائية وتوريدها إلى عاصمـة الإمبراطورية البريطانيـة لندن عبر الطرق البحرية وأصبح جورج ينتظر تلك الأيام التى ترسو فيها السفن بالقرب من مزرعتهم لتوطيد أواصر العلاقات الحميمة مع ربانها وبحاريها، وتجاذب أطراف الحديث الممتع والشيق حول قيادة السفينة وقدرتها عـلى خوض عباب البحار الهائجة والوصول إلى المرفأ المنشود.

وإلى جانـب اشتيـاق جورج للجلوس فى قـمرة القـيادة، فـقد بات مـشدوها ومشدوداً بمـا يتناهى لسمعه حـول العاصمة البـريطانية لندن وما تشهـده من تقدم وحضارة ونهـضة ورفاهية، ومن ثم كـان حلم جورج الآخر هو الوصـول عبر أية سفينة ترسو بالقرب من مزرعتـهم إلى الموانى الإنجليزية لمشاهدة تلك البلاد المتقدمة عن كثب.

* * * *

لورانس المثل الآخر

كان جورج يعلم أن والده كـان قد سبق له الزواج قبل أن يقتـرن بوالدته السيدة ماري وقد أنجبت زوجته الأولـى طفلين أولهما لورنس الذى ولد عام ١٧١٨ والثانى هو أوستن المولود عام ١٧٢٠، لكنه لم يلتق بهما من قبل؛ حيث أنهما قد أوفدهما والدهما لتلقى العلوم العسكرية في بريطانيا، وكم كان جورح تواقا لرؤية أخويه كلما وقعت عـيناه على أحد الضباط الـذين يرتدون البزة العسكرية والتى تضـفى عليهم نزعة بطولية ولمسة جمالية شغلت جورج ردحا من الزمان..

وفى أثناء عودة جـورج من مدرستـه متوجـها إلى بيتـه برفقة زمـلائه، وجدوا أنفسهم بالقـرب من إحدى الساحات الواسعـة التى تشهد تدريبات عـسكرية عنيفة يؤديها عدد ضخم من الضباط والجنود استـعداداً للمشاركة في خوض الحرب التى اندلعت بين انجلترا وأسبانيا.

وفي أثناء وقوف حـورج وترقبه لما يحـدث أمام عيـنيه وقف الضبـاط يلبون نداء قائدهـم بكلمة نعم إذا مـا نودى على أحدهم للتـأكد من عـدم هروب أو تسلل أحدهم من داخل المعسكر.

وفي تلك اللحظات تناهى لمسامع جـورج اسم شقيقه القـائد «لورانس أوجستين واشنطن» فرقص جـورج وضرب الأرض بقدمـيه وصاح قائلا لزمـلائه: أقسم أن القائد لورانس هذا شـقيقي.. إنه شقـيقى، وقد بدا كـمن أصابه مس من الجنون، ولكنه كان مـصمما على موقـفه وراح يقص على زملاء مدرسـته أن لورانس هذا شقيقه الأكـبر من الأب فقط، وأنه موفد إلى انجلترا لتعلم الصور العـسكرية امتثالا لرغبة الأب..

ولأن رواية جورج لـم تكن جديرة بالصـدق لدى زملائه فـقد تعـهد أمـامهم بمصافحة شقيقه لورانس عقب انتهاء التدريبات حتى يتأكدوا من صدق روايته.

وانتظر جورج على صفيح ساخن اعلان قائد العسكر بانتهاء التدريبات العسكرية حتى يتسنى له أن يؤكد لزملائه مصداقيتـه وأن يرتمى فى أحضان شقيقه الأكبر الذى لم يكن قد رآه من قبل حتى يعانقه ويشد على يديه ويصطحبه إلى البيت ليفاجىء به والده وأشقاءه، ثم يسـمع منه طوال الليل مشواره الطويل من فرجـينيا إلى المدرسة العسكرية بلندن، وما بينهما من أحداث ومـواقف وصور يتوق جورج لمطالعتها فى التو ودون إبطاء.

* * * *

وما أن فرغـت الفرقة العسكرية من أداء تدريبـاتها ، حتى أصدر القـائد أوامره بالانصـراف لنيل قسط من الراحـة لكل ضـابط وجندى بين أسرته على أن يعـود الجميع مرة أخرى فى الموعد المضروب لتسـفيرهم إلى انجلترا للانخراط فى صفوف القوات البريطانية فى حربها ضد أسبانيا.

وفى التـو انطلق الطفل الصغـير جـورج - الذى لم يكن قد بلـغ التاسعـة من عمره- إلى فناء المعسكر قاصدا أخاه القائد لورانس بين جموع العسكريين حتى عثر عليه ليرتمى فى أحضانه وقد بللت الدموع وجهه وهو يصرخ بصوت متحشرج: أنا جورج يالورانس ، أنا جورج شقيقك.. ألا تعرفنى؟!

وبمجرد أن سمع لورانس اسم شقيـقه حتى راح يمطره بوابل من القبلات، وهو يضمه إلى صـدره ليبث فيه شـوقه وحنينه الذى اكتوى به طوال سنـوات اغترابه فى انجلتـرا وابتـعاده عن أسـرته، بعـد لحظات من العناق الحـار اصطحب اليـوزباشى لورانس شقيقه الصغير جورج وتوجها معا إلى البيت والسعادة تغمرهما وسط ذهول

ودهشة زملاء جورج الذين صافحوا اليوزباشي واحداً بعد الآخر، وهم يتغامزون كعادة الصغار في مثل هذه المرحلة المبكرة من العمر.

كان لورانس العائد من بعثته العسكرية قد رقي إلى رتبة يوزباشي، ومن ثم أضحى قائد فرقة الجنود التي كانت تتدرب منذ قليل.

وفي طريق العودة إلى المنزل راح جورج يلقي بحزمة من الأسئلة على مسامع شقيقه، وراح اليوزباشي يجيب والابتسامة الحانية لا تفارق وجهه المشرق الباسم، وقد أمعن في شرح الأوضاع العسكرية المتفجرة بين انجلترا وأسبانيا فيما أصغى جورج وكأنه يفهم ما يردده شقيقه اليوزباشي الذي أكد أن البلاد تحارب في منطقة جزائر الهند الغربية في الجهة الأمريكية من المحيط الهادى . وراح يحكي ملابسات انضمامه إلى الفرقة العسكرية المتوجهة إلى ميدان القتال بأوامر صادرة لتوها من جلالة ، ثم استرسل لورانس في وصف أخطر وأبرز المعارك الحربية التي جرت في جبهة القتال وكيف استطاع أمير البحار (الادميرال ماونت فرنون) البريطاني من السيطرة على أهم وأقوى القلاع الأسبانية من خلال خطة عبقرية لم يشأ لورانس أن يشرحها لشقيقه جورج نظرا لصعوبتها وتعقيد خطوطها التي لا يستطيع استيعابها إلا من كانت لديه خبرات عميقة وتجارب طويلة في ميادين القتال.

وحين وصل لورانس إلى البيت الكبير راح يعانق والده ويحتضنه وهو يبكي فرحا على عودته سالما إليه بعد سنوات طويلة من الاغتراب بعيدا عنه . وراح الأب المتمرس يربت على كتف ولده لورانس يهنئه على رتبته الجديدة وتوليه منصب قائد فرقة عسكرية ضخمة، وبدوره توجه إلى أشقائه الصغار وجلس بينهم بعد أن صافح زوجة والده التي احتفت بقدومه وراحت تتولى بنفسها إعداد وتجهيز أفخر وأشهى وألذ أنواع الطعام والعصائر، وقد بدت لزوجها أنها تبذل قصارى جهدها

فى الاحتفاء بلورانس الأمر الذى بعث على نفسه الغبطة والسرور، ومن ثم قضت العائلة ليلة سعيدة هادئة وسط ذكريات راح لورانس يرويها فيما كان أشقاؤه ينصتون وقد فاغت أفواههم مشدودين مسحورين كأن على رؤوسهم الطير.

* * * *

بعد أن مرت بضعة أسابيع تجمعت الأسرة حول لورانس بعد أن قامت شقيقته بيتى بجمع متاعه وأدواته الشخصية وحزم حقائبه استعداداً للسفر مع جنوده المتجهين جميعا إلى لندن للاشتراك فى أتون الحرب الإنجليزية الإسبانية..

وكان جورج فى طليعة أفراد الأسرة الذين اصطحبوا اليوزباشى لورانس إلى ساحة التجمع لتوديعه، وهناك احتشدت العائلات واختلطت الدموع بالآهات والبكاء بالصراخ والنحيب كل يبكى على ليلاه.

الزوجة تبكى رحيل زوجها إلى ميدان القتال، والإبنة تصرخ من أجل أبيها الذى لا يدرى إن كان سيعود سالما غانما أم أنه سيكون ضمن ضحايا تلك الحروب المجنونة.. والأم تشق جيوبها حزنا وألما على أعز ما وهبته لها الدنيا، والفتاة المخطوبة تذرف الدموع تحسراً على اندثار الأيام الخوالى الناعسة الناعمة العذبة.. والأشقاء يحتضنون بعضهم البعض والدموع تتحجر فى عيونهم ضيقا وسخطا من تلك الحرب التى شاءت أن تباعد بينهم.

وانطلق صوت نافخ البروجى مؤذنا بالصعود الجماعى للجنود إلى ظهر السفينة وسط صيحات وصرخات ودعوات وقبلات وآهات ومزامير تصدح وطبول تدق وهتافات وأناشيد وطنية تدعو الله أن يحفظ الملك..

وأبحرت السفينة وقد اتجهت بوصلتها نحو المحيط الهادئ، وتحركت تقطع وتكسر الأمواج موجة بعد أخرى، وعادت الجماهير إلى بيوتها تجرهم أمالهم فى

لقاء قريب وتسكن آلامهم لغياب الحبيب، حتى بدت المدينة كئيبة حزينة بائسة إلا من صرخات الأطفال الذين أطربهم الحشد الشعبي والاحتفال المهيب الذى جرت وقائعه منذ لحظات.

وفى أثناء غياب الفرقة العسكرية عن المدينة كان جورج النابه يقود زملاءه فى المدرسة والمسكن إلى الفناء الواسع الذى شهد تدريبات الفرقة العسكرية وراح الأطفال والصبية يتقاتلون بالعصى وسيقان الذرة كأنهم جنود فرقة لورانس واشنطن بعد أن توحشت فى نفوسهم غريزة الجندية المبكرة.

* * * *

بعد مرور نحو عامين من مغادرة فرقة لورانس عادت الفرقة مرة أخرى وعلى رأسها القائد المغوار لورانس واشنطن الذى كان قد واظب على مراسلة أسرته من ميادين القتال حيث أن لقاءه بهم قد ألقى بظلال من الحب الجارف بات على أثره مهووساً بالعودة إليهم مرة أخرى بعد أن ذاق منهم حلاوة الترابط العائلى واستشعر بدفئه وسحره وضروراته وحاجته الملحة له..

توجه لورانس إلى بيت عائلته برفقة بعض الجنود الذين حملوا له صناديق الهدايا التى اشتراها لأشقائه ووالده وزوجته، وكان لورانس واعيا وذكيا حيث كان يعلم ما يريده أشقاؤه من هدايا دون أن يفصحوا له عنها أو يسألهم هو عما يبتغون.

كانت للهدايا أبلغ الأثر فى ترطيب صدور العائلة التى احتوت لورانس بحنانها وكرمها وقد أحس جورج بأن الحب نحو لورانس ينمو بداخله يوما بعد يوم، حتى أنه شعر أن لورانس لا يعد له أخا فحسب بل بات صديقا لا يمكنه الابتعاد عنه نظرا لدماثة خلقه وطيبة قلبه، وشديد كرمه وغزارة عواطفه التى لا تنقطع لحظة نحو أفراد أسرته بما فيهم زوجة أبيه التى أغدق عليها بأغلى الهدايا الأنيقة التى أعجبتها.

كانت عودة لورانس هـذه المرة تختلف عن سابقتهـا، حيث كان قد عـاد برفقة شقيقه أوستن الذى استقبلته الأسرة استقبالا حاراً لا يقل بحال من الأحوال عن تلك الحفاوة التى استقبلت بها الأسرة شقيقه لورانس.

لكن كان قلب جورج يـميل نحو لورانس الذى كان بمثابة مـثله الأعلى ونموذجه الذى يتطلع إليه ويقتفى آثره منذ أن وقعت عيناه عليه لأول مرة.

كان لورانس كعادته لا يكف عن رواية أغرب وأخطر وأقوى المعارك الحربية التى شهد وقائعها بنفسه فى ميـادين القتال الدائر بين إنجلترا وأسبانيا، ولم يكن يمل من سرد الحكايات التى كـادت تشبه الأساطيـر عن عبقـرية ونبوغ قائد البحـرية الملكية الأدميـرال ماونت «فرنون» أميـر البحار، الذى كـان مضربا للأمـثال فى البطولات والفنون العسكرية، فـضلاً عن شجـاعته وجسـارته التى كانت محط إعـجاب من جميع قادة وساسة بريطانيا العظمى.

كان جـورج أثناء تلك الحكايات المثيرة الممتـعة والشيـقة يجلس بين يدى لورانس مسحـوراً متأملا مـترقبا منتظرا ما سـيجود به لسانه الذى كـان جسراً ذهبيـا يعبره جورج إلى قلـب لورانس الذى كان يتـصف بالقدرة على عـرض ما يريد بسـهولة وبعبارات واضحة يسيرة غير معقدة أو مركبة لا تضفى على حديثه جواً من الكآبة، بل إنه كان مبعثًا للدهشة والذهول والإعجاب والانجذاب لمن يسمعه، ومن ثم كان جورج يرى أن شقيقه لورانس كان أبرع من أى أديب فى وصفه وحكاياته، كما كان يراه أجمل شاب فى مدينته، رغم أن لورانس كان ذو بشـرة سمراء وإن كان وجهه صبوحا وعيناه تلمعان ببريق كأنه قد اعتـاد تكحيلها، فيما كان ممشوق القوام نحيف الجسد، أما جورج فقد كان أحمر الوجـه أصفر الشعر طويل القامة عريض المنكبين رغم حداثة سنه فى ذلك الوقت الذى لم يكن قد جاوز فيه الثانية عشرة من العمر.

وفاة الأب المفاجئة

فيمـا كان جورج يقوم بزيارة لبعض أقـاربه في نفس المقاطعة التي يعيـشون بها، وبينما كان يتجـاذب أطراف الحديث مع أقاربه حول اعتزامـه الـسفر إلى لندن لتلقى علومه العـسكرية شأنه في ذلك شأن أخـويه لورانس وأوستن إذ بأحد الرسل يدق باب أقـاربه بعنف وحـين دنا من جـورج همس في أذنه بأن والده يشكو ألما حـاداً وعنيفـا وأنه قد أبدى رغـبتـه في رؤيته الآن، الأمر الذى دفع جـورج للوثوب في رشاقة على ظهر جـواده الذى انطلق به مهرولا وعجولاً إلى بيتـه بالمزرعة للوقوف على حقيـقة ما حمله إليه الرسول، وقـد كانت نبضات قلبه أكثـر عدداً من قفزات جواده من فرط خوفـه وجزعه على ظهره وسنده وجبله وقلعـته وحصنه المنيع ونبع الحنان الذى يرتوى منه كلما رآه.

وحين اقترب جـورج من البيت سرت في جسده قشعـريره لم يعهدها من قبل أوعزت إليه أن أباه في النزع الأخـير، أو ربما قد فارق الحيـاة حيث لاحظ أن البيت بدا في عينيه كئيبا قاتما مظلما، يبعث على الأسى، وحين استقبلته والدته انخلع قلبه بعد أن رآها على غير مـا تركها منذ ساعات، وقد بدى وجههـا غارقا في بحر من الدمـوع فصـدق حدسه الـذى راوده في طريق عودته ومـا أن تـسلل على أطراف قدميه إلى فراش والده حتى تأكد أنه قد فارق الدنيا فأغشى على جورج الذى كان قد اجـتاحتـه نوبة بكاء هستيـرى، وقد تنبه مـنها على يد محـامى الأسرة وواعظ الكنيسة وبعض أقاربه الذين كانوا قد حـضروا على عجل لاستشراف الوضع الذى آل إليه عميد الأسرة بعد أن طارت الرسل إليهم تخبرهم بأن أوجستين في خطر.

بعد لحظات قـام البعض من أفراد العائلة بتـجهيز مراسم الدفن وتشـييع الجنازة لإطفاء نار الحزن التي تسيطر على أفراد البيت طالما بقيت جثته ممدة حولهم.

كان والده يستحق الحزن والألم والأسف على رحيله حيث أغدق على جميع أبنائه بعذوبته وكرمه وسخائه وفضله ورقته دون تمييز أو تفرقة فيما بينهم، ولكن كانت الأم تتوجس خيفة من رحيل الزوج المفاجيء وما يمكن أن يترتب عليه من مخاطر جسيمة وعواقب وخيمة تنعكس على مسيرة الأسرة ومشوارها الطويل الذى انصرف عنه بيد القدر دون إعداد مسبق لرسم مستقبل هذه الأسرة التى تشتهر بكثرة أعدادها خاصة بعد عودة لورانس وشقيقه أوستن إلى أواصرها.

كانت مخاوف الأم فى محلها حيث أن الهواجس التى سكنتها عقب رحيل زوجها قد أضحت حقائق لاشك فيها، فقد أذاع محامى الأسرة بيانا تفصيليًا دقيقا ووافيا عن وصية الزوج الذى أوصى طبقا للأعراف والتقاليد والقيم الاجتماعية الإنجليزية بأن يرث لورانس النصيب الأكبر من التركة المتواضعة، وذلك وفقا لما هو متبع لمن يخلف آباه فى تلك الحقبة الزمنية.

وحين سمعت الأم نبأ الوصية وخيبة الأمل التى منيت بها هى وأولادها امتعض وجهها وأدركت فى التو أن المستقبل قد بات مظلما وسوداويا، ومن ثم وجب عليها تدبير ما يلزم فى الأيام القادمة وتغيير الخطط المستقبلية وما كان قد تعهد به الأب لأولاده قبل أن يفترسه الموت..

لقد ضاقت الدنيا فى عين الأم التى ورثت عن زوجها هموم ومتاعب لن تنتهى، بل ستزداد حدة وقوة عما كانت فى حضرة زوجها الذى لم يكن ثريا، بل كثيرا ما فقد أمواله فى تجارة التبغ الذى كان يقوم بتصديره إلى انجلترا عبر السفن البحرية بواسطة براميل كم من مرة قد تعرضت للتلف من سوء التخزين أو من تسرب الماء إليها بعد أن تمتد إليها يد الإهمال..

لقد أدرك جورج بذكائه أن الأمور بالفعل قد تغيرت وتحولت بوصلتها إلى مجهول غامض ينتظر الأسرة الكبيرة، ومن ثم لم يعد هناك مجالا لأحلامه التى

كانت تسكن نفسه وقلبــه وعقله وبات عليه أن يبحث بوصفه الشقيــق الأكبر لأشقائه من أمه خــاصة وأنه لم يعد بمقــدور لورانس وشقيقــه البقاء بعــد أن رحل من كان يحرص على وجودهما فى بيته، فربما كانت زوجة أبيهما لا يروق لها بقائهما خاصة بعد أن حظيا بالجزء الأكبر من ثروة لم تكن كبيرة.

* * * *

بعد أن شيعت جنازة الأب عاد الجميع إلى البيــت للتباحث فى شئون المستقبل، وكان لورانس وشقـيقه أوستن قد قررا دون تراجع مـغادرة البيت بعد انتــهاء العزاء وانقطاع الناس عن مواساتهم.

وبالفعل حزما الشقيقان حقائبهما وراحا يبحثان معا عن مكان مناسب ولائق لهما بوصفهما ضــباط فى الجيش الإنجليزى العريق ولكن سرعان ما تفــرقت بهما السبل حيث طابت الحيــاة لكل منهما وفق هوى صاحبــه، فقد استقــر لورانس فى مزرعة واسعــة تطل على نهر بوتوماك بالقــرب من المزرعة التى كان يستــأجرها والده من قبل، بينمــا عاش شقيقــه الأصغر أوستن فى إحدى المزارع، قيل إنــها المزرعة التى قضى فيها جورج بعضاً من طفولته.

وكان جورج كـعادته لا ينقطع عن زيارة شقيــقيه اللذين قد تزوجـا بعد رحيل الأب المفاجىء، خاصــة تردده الدائم على بيت شقيقه لورانس الذى كــان يميل إليه وينجذب إلى أحاديثه خــاصة وأنه كان مفتوناً بسيرة الأدمــيرال «ماونت فرنون» الذى أطلق لورانس اسمه على مزرعته فى مدينة ويكفيلد.

كانت الحياة فى تلك المدينة مـثيرة وشيقة ولطيفة.. حيــاة لم يكن جورج يعهدها من قبل وكــان بيت لورانس قبله - لقادة كــبار ورموز من داخل الجــيش الإنجليزى وخصوصا ضباط البحرية من أصدقاء ومعارف لورانس.

كان لورانس كـريما سخـيا فى بيتـه، حيث كثـيرا ما كـان يقيم الولائم الفخـمة لضيوفه فضلا عن سماحته فى ممارسة لعب الورق كل ليلة كما كان مشهورا بإعداد وتجهيز اصطياد الثعالب.

كان لورانس على علاقة وطيدة وصداقـة عميقة مع آل «آن» الذين يجاورونه فى المسكن، حيث كـان عمـيد تلك الأسرة السـير ويليام فـيرفـاكس من ألمع الرجال وأشهرهم على الإطلاق..

كان لهذا الـرجل ابن عم لورد واسع الثراء حيث يمتلك فى فـرجينيا نحـو أكثر من خمسة ملايين من الأفدنة خلف جبال ريدج.

* * * *

كيف تتعامل مع الآخرين؟!

كان جورج حائرًا تائهـا لا يدرى كيف يجيد التصرف نحـو الآخرين؟ ومتى يبدأ هو الحديث؟ وكيف يستطيع أن يتجاذب مـعهم أطراف الحديث دون أن يثير غضب أى منهم أو يفقد تقديره وامتنانه واحتـرامه؟ كان جورج مسكونا بهذا الأمر لا يكل من البحث عن آدابه وقواعده، ثم كان كثيرا ما يتساءل: متى يضع ساقا على ساق؟ ومتى يلوذ بالصـمت؟ ومتى يضحك؟ ومـا هى الموضوعات المناسـبة؟ وهل ينحنى لفلان أم يصافحه وهو منتصب القامة مرفوع الهامة؟

هواجس وخواطر هاجت بها رأس جورج المراهق الذى استغرب أن سكان تلك المقاطعة التى يعيش بها شقيقه لديهم القـدرة والبراعة على صياغة العلاقات الإنسانية الناجحة، وهو الأمر الذى يفتقده أو هكذا كان يظن.

وظل جورج على حـاله حتى عثر على كـتاب فى مكتبـة شقيقـه لورانس، كان الكتاب بعنوان: «كيف تتعامل مع الآخرين ؟ وقـد راح يقرأ بعض فقراته فى سعادة غامرة بعد أن عثر واهتدى إلى ضالته المنشودة..

ومن بين هذه الفقرات التى اجـتذبته: «إن أى عمل تؤديه أمام جمع غـفير من الناس يجب أن يرتبط سلوكك بمظهر من مظاهر الاحترام للغير.. فإذا تثاءبت ضع يدك على فمك، إذا دخلت مكانا ما فـما عليك سوى أن ترفع قبعـتك لمن فيه من ذوى المناصب المرمـوقـة، لا تجلس والناس وقـوف، لا تسـتـسلم للنوم وأحـدهم يتحدث معك، لا داعى لإظهار فرحك إذا حـلـت كارثة بأحد حتى وإن كان عدوا لك».

لقد تفحص جورج قـائمة الممنوعات والمحظورات والمسموحات، فـاكتشف أنها تتجاوز المائة، ومن ثم اعـتكف على نـسخها لحفظـها من أجل أن يعمل بما ورد فى سطورها حتى يتسنى له اكتساب صداقات جديدة كما يفعل شقيقه لورانس.

العمل فى المساحة

كعادته فى الصباح راح جورج يلعب مـع الصبية من زملاء المدرسة أو من أبناء البيوت المجاورة لبيـته، وفى إحدى الأماكن الشاسعة جلس الصبية جـميعا يتأملون أداء بعض رجال المساحة الذين وفدوا إلى مـدينة فردريكسبورج لمسح قطعة الأرض الواسعة بالمدينة التى كان الجند يتدربون بها على يد شقيقه لورانس. .

كان الهدف من إجراء عملية المسح هذه إمكانية التخطيط الهندسى لتدشين أحد الشوارع الجـديدة، وكان من بين هؤلاء المسـاحين مـجموعـة تخصـصت فى جر الجنازير، وأخـرون يتـولون نقل الآلات من مكان، إلى مكان ثم يفـحص أحـدهم بإحدى عينيه آله البوصلة المثبتـة أمامه على أحد الحوامل ذات الأرجل الثلاثية على أن تتحرك أيديهم بطريقة واحدة لا تتغير.

كان جورج بين أصـحابه يرصد كالقط تلك العملـيات وهو يأمل أن ينخرط فى صفوفهم لمساعدتهم، وقد واتته الفـرصة حين انسحب أحد الرجال من الميدان لعلة قد أصابته فأرغمته على الخروج تاركا مسئولياته لزملائه، فأسرع جورج لشغل دور هذا العامل المريض وتولى بالنيابة عـنه القيام بجر الجنازير وهى الطريقة التى أعـجبته وجذبته إليها.

وفى أثناء العمل راح يسأل كبيرهم عن الأجـر الذى يتقاضاه لو أنه عمل معهم مساعد مـاح، فتلقى جوابا عن طبيعة الأجور صادف هوى فى نفسه، وقرر المضى قدما فى هذا الأمر لمساعدة والدته وأشقائه؛ خاصة أن غياب الأب المفاجىءقد ألقى بكل تبعاته وسلبـياته على مسار الأسرة التى أصبـحت فى مهب الريح تعانى شظف العيش، وتشكو قلة الحيلة والزاد.

المهـم. . اتجه جورج إلى منزله للبحث فى مخازنـه عن عجلة مغزلة كانت ملقاه بداخله منذ سنوات ويبحث عن صندوق كـبير أسود اللون له يد حـديدية مربوط به عدد لا بأس به من الـعصى، والذى يستـخدمه المسـاحون عند قـياس الأراضى، وكان والده شديد الاعتناء بوجود مثل هذه الآلات فى منزله لقياس المزارع التى كان يحرص على شرائها وزراعتها.

وقام جـورج فى التو بنشر أرجل الحـامل الثلاثه وقام بتـثبيتـها على الأرض ثم أخرج البوصلة ووضعها فى موضع سليم على أن تلتقى بهذه الأرجل، وسرعان ما صرخ من أعماقه بما يشير بأن الأدوات سليمة ولم تتعرض للتلف . .

وفى التـو ودون تردد قرر جـورج أن يعمل مـساحا؛ ولأنـه كان يدرك أهمـية تحصيل علوم الرياضيات لكى يجيد تلك المهنة قرر أن يلجأ إلى جاره المستر ويليامز أستـاذ الرياضيات للتـزود منه والاستفـادة من علمه حتـى يتسنى له فرصـة العمل مساحا يستطيع عمل التخطيط والقياس.

وجلس جـورج يفكر فى هذا الأمر، وهل يفـاتح أخاه لورانس فى هذا الـشأن عبر رسالة مطولة يشرح بها أسباب شغفه بتلك المهنة وما تدر عليه من أرباح تعضد من حال الأسرة وتشد من أزرها، أم أن لورانس لن يتـقبل مثل هذا العمل الشاق لمن هو فى مثله سنه؟!

وقبل أن يفـرغ جورج من هواجسه التى كـانت تهيج فى رأسه كـأنها مظاهرة، سمع البـاب يدق فأسرع ناحيـته ليستطلع القادم إلى منزلهم فإذا به سـاعى البريد الذى جاء حاملا إليه رسالة من شقيقه لورانس. .

وقام جورج على الفور بقـراءة نص الرسالة التى عرض بها لورانس فكرة لاقت قبولا وترحابا لدى جـورج؛ حيث أخبره أن البحرية قد أصـدرت إعلانا تطالب فيه

الشباب بالانخراط فى صفوفها إذا توافرت لديهم الشروط الصحية والذهنية والجسدية..

ربما كانت هذه الفكرة هى التى كان يحلم بها جورج حيث تاق منذ نعومة أظفاره لأن يكون ضابطا من ضباط البحرية؟ لقد راودته صورة القبطان البحرى والبحارة الذين أنقذوه من الغرق وراح يتجاذب معهم أطراف الحديث حتى أنه تطلع إلى اليوم الذى يصبح فيه بحاراً يشق بسفينته عباب البحار ويكسر أمواجه العنيفة..

ثم ما أروع أن يعمل ضابطا فى البحرية البريطانية، وهل يمكن أن يكون يوما ما أميرا للبحار تروى عنه البطولات والحكايات كما اعتاد لورانس أن يقص على مسامعه خوارق وبطولات الأدميرال «فرنون» أمير البحار؟ وراح يستسلم لخيالاته حتى وجد نفسه مرتديا الثياب البحرية وقد تزينت بالأوسمة والنياشين الملكية المحلاة بالذهب وظل جورج بعض الوقت محلقا بأجنحته فى سماء خياله الخصب، شاخصا ببصره نحو صورته المستقبلية بوصفه أمير البحار (جورج واشنطن) مضرب الأمثال.. ورمز البطولات وأمل الأمة حتى باغتته والدته بقولها:

جورج ماذا دهاك أراك مذهولاً، ماذا بك يا بنى؟

لم يكن جورج قد استرد شخصيته بعد ليجيب على أسئلة والدته، ثم ما لبث أن استوعب ما يجرى من حوله بعد أن جذبته أمه بصوتها الصاخب وأسئلتها المتوالية على رأسه.

وتقدم جورج نحوها بخطوات ثقيلة راجيا من الله أن تسمح له بالانخراط فى البحرية البريطانية خاصة وأن موافقتها شرطا رئيسياً من شروط الانضمام نظرا لسنه الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة وهو ما يجعله يفتقد شرط الانضمام دون الحاجة لموافقة ولى الأمر، وراح جورج يقرأ على والدته نصوص رسالة شقيقه

لورانس، بيد أن الأم قد صرخت فى وجهه وهى تضرب الأرض بقدميها احتجاجا على تدخل شقيقه فى شئون بيتهـا، ومن ثم أعلنت بملئ جوفـها ومن أعماقـها رفضها القاطع والحاسم لهذا الأمر.

لكن جورج الذى تاقت نفسه للانضمام فى صفوف البحرية راح يلح على والدته لكى تمنحه رضـاها ومباركتـها، بيد أنهـا طلبت منه أمام إصراره وإلحاحـه أن تبعث بخطاب إلى شقيقها «جوزيف بول» تستشيره فيه، وتستطلع رأيه فى هذه الفكرة ومن ثم يمكنها أن تحدد موقفها من تلك الفكرة..

وامتـثل جورج لهذا الاقـتراح ظنا منه أن خـاله جوزيف سوف يبـارك مثل هذا الأمر، غير أن خاله أرسل رداً عاجلاً يتوسل فيه إلى والدته بعدم الاندفاع فى مثل هذه الأمور؛ حيث أن العـمل فى البحرية سوف يعرض ابنهـا جورج للتعب والكد والمعاناة والتميـيز والضرب والتعذيب والاضطهاد ،خاصة وأن البـحرية البريطانية لا تبالىَ بالفـقراء الذين لاينتسبون إلى الـنبلاء والأمراء، بينما تبدى سـخطها وازدراءها إزاء من هم على شاكلة جـورج، وعاد جورج أدراجه لينظم أولويات حـياته، ومن ثم قرر العودة إلى الانخراط فى عمل المسـاحة مع بعض العمال الذين يعملون فى نفس المجال..

وبعـد أن اكتـسب جورج الخـبرة قـرر أن يعمل بمفـرده ولم يكن قد مـر على انخراطه فى صفـوفها أكثر من خمـسة أشهر؛ وذلك لرجاحة عـقله وذكائه وقدرته الفذة على الفهم والاستيعاب.

وراح جورج يعلن للكافة أنه قد أصبح مّساحا يستطيع القيام بأى عمل يوكل إليه بمفرده دون الحاجة إلى مسـاعدة الغير أو الاستعانة بخبـراتهم، وبعدها تلقى عرضا بعمل مسح كامل فى إحدى المزارع، وقد أجاد وبرع فى مـهمته وقد تقاضى أجراً بلغ فى حينه جنيهان وحفنه من الشلنات نظير نجاح عملية المسح التى قام بها.

وذاع صيت جورج بين المزارع حتى أصبح ذو شـأن فى مجال المساحة، وحين أدرك أهميـة دوره ونبوغه المبكر في مـسح الأراضى قرر الرحـيل من بلدته «فرى فارم» والانتقال إلى بيت شقيقه لورانس في ماونت فرنون . .

وعقب وصـوله إلى هناك نما لعلمه أن اللورد الثرى فـيرفاكس الذى اشتـهر بأنه أغنى الأغنياء حيث يملك بمفـرده حوالى خمسة مـلايين من الأفدنة قد وصل من انجلترا وسوف يحل ضـيفا على المدينة ولن يتردد لورانس بالطبع فى الالتقـاء به كما هو معتاد .

* * * *

اللورد المتواضع

وحدث ما توقعه جورج حيث التقى مع اللورد فيرفاكس من خلال الصداقة العميقة التي تربط شقيقه لورانس به منذ سنوات. .

كان اللورد فيرفاكس قليل الكلام كثير التأمل محب للقراءة، يهوى المطالعة، لا يميل إلى مخالطة النساء، ولايمل من الاختلاء بنفسه، وهى كلها عادات تتعارض مع ما تميز به ابن عمه السير ويليام الذى لا يكف عن الثرثرة وإطلاق الضحكات والنكات والقفشات والدعابات. فى إحدى ليالى الشتاء الطويلة استقبل اللورد فيرفاكس ضيوفه الذين وفدوا على بيته للاحتفال بأعياد الميلاد ورأس السنة الجديدة، وكان من بين هؤلاء الضيوف لورانس وجورج، وقد انخرط لورانس فى صفوف المحتشدين فيما راح جورج يقف عل باب غرفة الاستقبال يتأمل المشهد الذى لم يكن مألوفا له.

كان لورانس وزوجته «آن» كعادتهما فى صدارة صالة الرقص، وقد أعقبهما جورج فيرفاكس شقيق «آن» وخطيبته سالى كارى تلك الفتاة التى تتمتع بصفات رائعة من حيث ملامح وجهها وعودها الممشوق وشعرها الذى يتهادى فى دلال على وجنتيها وعينيها الواسعتين حتى أن جورج قد أدرك فى التو أنها أجمل فتاة فى داخل الحفل. .

وحين وقعت عيناه على شقيقتها الصغرى فكر لدعوتها لمراقصته، لكنه أبى وتراجع خوفا من ألا تلبى مقصده. . ثم سرعان ما قرر بعد أن أشار عليه شقيقه لورانس بالمجيء إلى صالة الرقص وهو ما دفعه للتقدم نحو الفتاة الصغيرة التى طلب منها مرافقته لصالة الرقص وقد تملكه الخجل حتى أنه فوجيء بأنها أجابت

طلبه دون تردد أو تفكير، وإن كان قد شعر بالندم من ذلك حيث رأى فى ملامح تلك الفتاة الصغيرة صورة فتاة كان قد أحبها فى مقتبل صباه لكنها ابتعدت عنه فى تطور مفاجىء لم يكن متأهبا له مما كان له أكبر الأثر فى عواطفه التى باتت لا تندفع لنسج مثل هذه العلاقات العاطفية التى من شأنها تحطيم قلبه الذى بدا له وكأنه من زجاج يمكن لأية فتاة ألا تتردد فى كسره وتحطيمه وتهشيمه.

على أية حال بدا جورج أمام لورانس شقيقه أنه منهمكا وغارقا حتى أذنيه فى مراقصة تلك الفتاة الصغيرة، وإن كان لا يبادلها النظرات أو الكلمات الناعمة الطرية التى تسحر الألباب وهو ما لاحظة السير ويليام الذى بادر اللورد فيرفاكس بقوله:

- يخيل لى أن جورج هذا الولد الصغير شقيق لورانس يتمتع بالسلوك القويم؛ حيث أنه كما ألاحظ خجول للغاية من الجنس الآخر. أليس هذا صحيحا!

فأجاب اللورد فيرفاكس بخبرة الشيوخ: لا.. لا.. إن ذلك بسبب بواعث الألم والحزن الذي عانى منه بعد وفاة والده وهو فى سن مبكرة.

كان اللورد فيرفاكس معروفا بكراهيته للنساء بعد أن خاض تفاصيل علاقة عاطفية مع سيدة لم تكن قد أخلصت له كما أخلص هو لها، الأمر الذى يشعر معه اللورد فيرفاكس أنه في غنى عن الاختلاط بأية امرأة حتى لا يعاود مثل هذه التجربة القاسية التى ألمت به كثيرا ومازالت تلقى بظلالها عليه رغم محاولاته وجهوده الشاقة فى نسيانها.

كان اللورد ينجذب نحو الفتى جورج يوما بعد الآخر، حيث راقت له طريقة جورج فى امتطاء جواده ورشاقته وقدرته على تلقين الجواد دروساً عملية يقوم بها الجواد بمجرد تلقيه الأوامر من جورج، فضلا عن مهارة جورج فى تربية كلاب

الصيد والاعتناء بها.. ثم إنه أحب في جورج رجولته المبكرة، ورجاحة عقله وحكمته وسلامة منطقه ورصانته، وإجادته القيام بعمل مسح الأراضى بمفرده.

وأمام هذه الأسباب المتعددة لطاقة الإعجاب التى يحملها له اللورد فى صدره أحس جورج أن هذا الرجل بات عوضا عن والده، وراح يتقرب من الرجل رويدا رويدا كأنه أحد أبنائه حتى بادره اللورد ذات يوم متسائلاً:

- قل لى يا جورج.. هل يمكنك أن تتولى القيام بإدارة بعض أعمالى فى مسح الأراضى؟

كان جورج أثناء سماعه تلك العبارة الاستفهامية يود أن يرقص أو يقفز فرحا وطربا على الأرض، أو أن يصرخ صرخة مدوية لعلها تبلغ مسامع والدته المسكينة.. مشاعر الفرحة احتشدت في قلب جورج وكادت تدمع عيناه، ها هى الدنيا قد أشرقت بنورها، وها هى السماء قد أمطرت بكرمها.. أوه ما أروع شقيقى لورانس هذا الذى صاغ لنفسه مثل هذه العلاقات الثمينة!

كانت ملايين الأفدنة التى يملكها الرجل فى حاجة إلى عمليات مسح لزراعتها أو بيعها فيما بعد، وكان جورج فيرفاكس شقيق آن زوجة لورانس يعمل مساحا فى نفس الضيعة الشاسعة يرافقه رجل آخر ذو خبرة واسعة، وسوف يكون جورج واشنطن هو ثالثهم إن أراد ووافق أن يكون ضمن فريقهم.

وبالطبع وافق الفتى على الفور، وكيف لا يوافق وقد كان ينتظر مثل هذه الفرصة الذهبية للإنهماك فى عمل لا ينتهى حتى يستطيع تدبير أمره، وشراء مزرعة بمفرده وتأثيث بيت جميل بداخلها بعد أن يتمكن من تجميع مدخرات تساعده على شرائه الذى طالما حلم به طوال السنوات الفائتة.

* * * *

الفصل الثانى
مذكرات جورج واشنطن

حيث تسلم جورج مهام عمله الجديد راح يقرر تدوين الأحداث اليومية واللحظات الدقيقة التى يعيش تفاصيلها يوميا . .

ففى يوم الجمعة الموافق الحادى عشر من شهر مارس ١٧٤٨ انغمس جورج فى تسجيل أحداث ذلك اليوم . . فقد شهد صباح هذا اليوم قيامه مع جورج فيرفاكس عبر جواديهما برحلتهما فى حقول التبغ الضخمة، وبساتين الكريز الوردية تحيط برحلتهما من كل صوب وحدب. حتى راحت تندثر معالمها كلما طال زمن الرحلة وشق الجواد طريقه حتى بلغا معا الأراضى الجدباء .

فى صباح اليوم التالى استيقظا معا وقد اكتشف واشنطن أنهما قطعا نحو أربعين ميلا وقد التقيا فى طريقهما كبير المساحين المستر جن، وتبعهم واشنطن متسلقا أحراش الجبال طوال هذا النهار حتى وصلوا إلى قمة جبال البلوريدج بعد ظهر نفس هذا اليوم، وقد بدا لهم في أسفل وادى شناندوا ذو المنظر الرائع وقد انبسط أمام أعينهم فى لوحة جميلة لا تمل منها العين، كان جورج واشنطن لا يعبأ بروعة تلك الصور الطبيعية الرائعة؛ حيث كان فى تلك الأثناء يتضورجوعا ويكاد يقع مغشيا عليه من فرط هذا الجوع الذى التهم معدته التى بدت خاوية حتى من الصبر، ومن ثم كان منهمكا فى حساب زمن العودة إلى الفندق الذى يقيم فيه للنوم وتناول الطعام . .

وفى صبيحة يوم الأحد الثالث عشر من شهر مارس ١٧٤٨ سار الثلاثة ومن بينهم جورج نحو منبع النهر قاصدين كوخ الصيد الذى يعد ضمن ممتلكات اللورد فيرفاكس . . كان جورج شديد الإعجاب بما شاهده من أشجار الاسفدان ومن

الأراضى التى تتميز بجودتها وخصوبتها التى تخضرت وتلونت على يد المستوطنين الجدد، فأنتجوا منها قمحاً وتبغاً بعد أن كانت جرداء صفراء.

وفى يوم الثلاثاء الموافق الخامس عشر من مارس ١٧٤٨ سجل جورج فى مساء هذا اليوم أنه فى هذا الصباح قضى ساعات هذا النهار فى مسح الأراضى، وقد أكد أنهم وصلوا إلى ما يطلقون عليه «المارشذ» قضوا يومهم كله فى عمل لا يتوقف، ولأن جورج كان يشكو ألم الإجهاد والتعب فقد استسلم للنوم فى كوخ أحد رواد تلك الغابات وقد خلع عنه ملابسه كما اعتاد فى منزله أو الفندق الذى يذهب إليه. من ثم ذكر فى يومياته قائلا: «وذهبت إلى ما يطلقون عليه الفراش أو مخدع النوم.. ووجدته ياللهول حزمة من القش المتلبد العارى.. لا توجد ملاءة، بل لا يوجد أى شىء باستثناء ملحفة عفنة كانت وكرا للقمل والبراغيث».

وهنا أدرك جورج أنه تعجل فى خلع ملابسه وعاد مسرعا لارتدائها مرة أخرى ثم راح يتمدد على الأرض بجوار زميليه أمام الموقد محتميا من شدة البرد.

وفى يوم الجمعة كان قد مر على وجودهم فى تلك الجبال نحو أسبوعا كاملا، وقد بلغ بهم المسير نهر (البوتوماك) فاكتشفوا أنه مكتظا بالثلوج المائية المتساقطة لتوها من القمم الجبلية وأمام تلك العقبة دفعوا خيولهم فى وسط النهر لكى تتمكن من عبوره سابحة إلى شاطئ مريلاند وعلى إثر ذلك توجهوا صوب أحد المراكز التجارية الهندية، وقد ذكر فى اليوميات: «لقد قطعنا أميالاً على أبشع طريق يمكن أن يمر عليه إنسان أو حتى حيوان، وقد كانت الأشجار الساقطة التى تراكمت عليها الأغصان والشجيرات التى غاصت فى مياه الأمطار من أبرز المعوقات والمشكلات التى واجهتنا أثناء سيرنا فى هذا اليوم خاصة وأن السماء ظلت ترعد وتبرق وتمطر دون توقف».

وفي يوميات الأربعاء ذكر أنه في تمام الساعة الثانية من عصر هذا اليوم شاهدوا حشدا هائلا من الهنود في طريق عودتهم من ميدان الحرب، وقد بلغ حشدهم أكثر من ثلاثين رجلا، وكان معهم فروة رأس واحدة فقط بعد أن تعاطوا الخمور انغمسوا جميعا في وصلة رقص أطلقوا عليها رقصة الحرب..

وراح جورج يكتب واصفا هذا المشهد بقوله: «أما طريقة هؤلاء الهنود في أداء الرقص فهي غريبة ومثيرة، حيث ينصبون حلقة واسعة ويوقدون في قلب هذه الحلقة شعلة هائلة من النار المستعرة، ثم يجلسون حول تلك النار وينطلق أمهرهم في الرقص على أن يتبعه الكل فيما بعد فيقفز ويجرى ويدب الأرض بقدميه بطريقة كوميدية، وكان لافتاً للنظر عدم اصطحابهم لأية آلة موسيقية باستثناء جرة من الماء عليها جلد غزال وقطعه من اليقطين ربط فيها قطعة من ذيل فرس وبداخلها قليل من الرصاص حتى يحدث الرصاص صوتا مدويا فكان أحدهم يرج اليقطينة فيما كان الآخر يطبل على أن يرقص الجميع بلا هوادة».

ومر يوم الخميس على نفس المنظر في تبديد بعضاً من الوقت في مبادلة الحديث مع الهنود الحمر.

وقضى جورج واشنطن الأسبوعين التاليين في مسح الأرض برفقة زميليه، حتى أنهم كانوا ينجزون نحو خمسمائة فدان يوميا وربما أكثر من ذلك في بعض الأيام الأخرى.

بعد انقضاء النهار في مسح الأراضي يخلد هؤلاء الثلاثة للنوم في إحدى الخيام التي شيدوها، ويتناولون طعامهم من الديوك الرومية التي تقع في فخاخهم المنصوبة ثم يقومون بذبحها وتنظيفها وشوائها على نار هادئة.

وفى إحدى الليالى امتـدت نار الشواء إلى الأعشاب الجافة المحـيطة بالخيمة التى يفتـرشونها للنوم، وقـد تعرضت تلك الخيـمة إلى الاندثار فى مـهب الريح بعد أن هبت عاصفة عنيفة أودت بقلوعها المضروبة فى باطن الأرض..

وفى يوم الأحد الموافق العـاشر من أبريل حملوا أمتـعتهم وفكوا روابط الخـيمة وامتطوا جيادهم متجهين نحو جبال البلوريدج، وفى يوم الأربعاء الذى يوافق الرابع عشر من أبريل ١٧٤٨ عاد المستر فيرفاكس إلى بيته سالما، وبالتالى بلغ جورج مأمنه فى بيت شقيقه لورانس.... وقد وصف مشـاعر الغبطة التى استحوذت عليه لدى عودته سالما من تلك الرحلة الوعرة الشاقة التى أجهدته وأرهقته وإن كانت قد أكسبته الكثير ممن لم يكن يتوقعه.

* * * *

هجرة شقيقه لورانس

بعد أن عاد جورج واشنطن من رحلته الطويلة التي تعد الأولى من نوعها، أوكل إليه العمل في مسح الأراضي في مدينة الأسكندرية الجديدة ومحاولة تخطيطها وهي تطل على نهر البوتوماك، وإن كانت تبعد عن ماونت فرنون حوالي ثمانية أميال.

ونجح جورج في إتمام مهمته، وجرت جميع الطقوس والاستعدادات لبيع قطع الأراضي في مزاد علني.. وقرر شقيقه لورانس أن يتواجد في هذا المزاد.

في أحد الأيام التي تلت مسح الأسكندرية اشتكى لوراتس من ألم غريب يكوى جسده، وقد بدا مرتبكا لا يدرى من أمره شيئا.

وأحس جورج أن الدنيا سوف تضيع في عينيه رغم تقدمه ونجاحه المذهل يوما بعد الآخر، بيد أنه أحس أن شبح والده بدأ يطل أمام عينيه بين الحين والآخر عقب رؤيته لشقيقه لورانس الذى تمدد على فراش المرض مستسلمًا له..

في ربيع هذا العام وبينما كان لورانس طريح الفراش نال جورج اعتمادية المساحين الخبراء في أن يكون أحدهم اعترافا منهم بدوره وبراعته.

وعاد جورج يتولى مهام مسح الأراضي الجبلية التي يملكها اللورد فيرفاكس الذى كان يغدق عليه المال حتى يجنبه مشقة العيش وذل السؤال من هذا أو ذاك لفرط حبه وامتنانه وتقديره له على ما يظهره من براعة وإجادة، وراح جورج يدخر أمواله ويكدسها حتى يستطيع شراء أول مزرعة له قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره.

وبالفعل نجح جورج واشنطن في شراء مزرعة مكونة من ألف فدان وتبع ذلك شراؤه مزرعة أخرى بلغت مساحتها أربعمائة وستة وخمسون فدانا وذلك قبل أن يحل عيد الميلاد ببضعة أيام، وقد انطلق لزيارة أمه وأشقائه في رفرى فارم ولزيارة شقيقته بيتي التي تزوجت في فرد ريكسبورج من مستر لويس.

استقبلت الأم ابنهـا بحفاوة بالغة حيث أمطرته بقبلاتـها، ودثرته بحضنها الدافىء الذى تاق إليه كثيرا، ومن ثم راح يبكى على صدرها وقـد أكد لها والدموع تنهمر من مقلتيه أنه فى ســبيله لإسعادها هى وأشقائه، وأنه سيعـوضهم كل ما فاتهم وأنه أصبح من ذوى الأملاك، وهى الأنباء التى انفرجت معها أسارير الأم وتهللت منها ملامح أشقائه.

ولم يتردد جورج فى اصطحاب والدتـه لزيارة شقيقته بيتى التى حـمل لها كومة هائلة من الهدايا لها ولزوجها، وقد اختلطت دموع جـورج بدموع شقيقته بيتى التى وعدها بتوفير ما يلزمها من مال إذا ما لزم الأمر واقتضت الضرورات ذلك.

وبعد أن قضى جورج نحو أسبوع بصحبة والدته وأشقائه عاد أدراجه إلى مزرعته لمباشـرة أعمال بها، وبمهنتـه التى لا يستطيع الاستغناء عنـها كأحد أمهـر المساحين وأبرزهم على الإطلاق. ومع عودته إلى مزرعته آل على نفسه رغم مشقة السفر أن يستـبدل ثيابه ويتوجـه لرؤية شقيقـه لورانس للاطمئنان على صحتـه، بيد أنه لاحظ اعتلالها وتدهورها بشكل ملحوظ ألقى فى قلبه الرعب من سوء المنقلب.

فى تلك الأثناء كان لورانس قد قطع على نفســه القيام برحلة إلى الجزائر الهندية لعله يسترد صـحته وعافـيته بعد أن يستنشق هواءها النـقى، على أن يدع زوجته لا يصطحبـها حرصا على صـحة طفلتهـما الجديدة، ومن ثم قرر جـورج اصطحاب شقيقه فى تلك الرحلة مضحيا بكل أعماله فى سبيل البحث عن شفاء لورانس الذى أحبه وعلى أهبة الاستعداد لبذل أى جهد من أجله.

وسافرا مـعا من نهر البوتوماك وبعـد مرور أربعة أسابيع فى عـرض البحر هبطا إلى جزيرة باربادوس ذات الأراضى الخضراء حيث أنها تشتهر بزراعة قصب السكر والأناناس.

ورغم روعة المناخ ودفء الشمس ونقاء الجو كانت صحة لورانس تتدهور شيئا فشيئا، وقد تعرض جورج للإصابة بالجدرى ولهذا عاد من هذه الرحلة التى أبحر فيها للمرة الأولى والأخيرة فى حياته مشوه الوجه حتى أن لفظ أنفاسه بفعل الجدرى..

وفى عام ١٧٥٢ تدخلت يد المنون وزهق لورانس أنفاسه الأخيرة على صدر شقيقه جورج وفى وجود طفلته وزوجته، ولم تكن مفاجئة تلك الوصية التى تركها لورانس والتى أوصى خلالها بتخصيص الجزء الأكبر من أملاكه لأخيه جورج كما أنه قد أوصى له بمنزله الكبير فى مزرعة ماونت فرنون.

وهكذا تلقى جورج الصدمة الثانية بعد صدمته الأولى التى تلقاها فى صغره بموت أبيه، وإن كانت تلك الصدمة تعد بالطبع أخف وطأة وأقل حدة من تلك الصدمة الأولى، فقد تركه الأب خالى الوفاض فيما خصص له شقيقه مساحة هائلة من الأراضى والأموال والبيت الذى يتطلع الجميع للعيش بداخله، ومن ثم لم تكن تلك الصدمة مروعة بل كانت إلى حد ما قاسية نظرا لفراق شقيقه وحرمانه من عطفه وحنانه ودفء مشاعره وإخلاصه، وصدق بيانه وحفاوته ورعايته التى احتضنته طوال وجوده فى ماونت فرنون.

وأدرك جورج أنه لولا لورانس لظل على حاله لا يملك من أمره شيئا سوى أنه مجرد مسّاح بجوار والدته دون أن يرتبط باللورد الغنى الذى توثقت علاقته به من خلال شقيقه الراحل..

ولولا أن هذا الشقيق كان يتميز بإجادة نسج العلاقات الاجتماعية ما كانت الأمور قد تغيرت إلى هذا الحد..

اليوم فقط أصبح جورج بفضل علاقـات لورانس وطيبة قلبه يملك أكثر من ألف وخمسمـائة فدان بل وأصبح من أشهر المسّاحين، وكيف لا وهو يـعمل فى ضياع أغنى أغنيـاء القارة الأمريكيـة، ويتردد على بيـته وينهل من عطفه ومـروءته وعطائه وحنانه؟ وكل هذا يعود بالفضل إلى العزيز الذى رحل عن دنياه.

* * * *

الفصل الثالث
حرب الهنود مع الفرنسيين

بعد أن ذاع صيت جورج واشنطن في مدينة وليامز برج وغيرها عقب عودته من رحلته الطويلة لمسح الأراضى المملوكة للورد فرفاكس المترامية فى أحراش الجبال والأدغال والغابات، استدعاه حاكم الولاية الذى أمر بتسليمه بزة عسكرية مزينة برتبة رائد من أجل إرساله إلى مهمة عسكرية خطيرة فى تلك المناطق الوعرة التى كان يتردد عليها أثناء عمله، وعلى الفور توجه جورج إلى مقر الحاكم الذى أبدى ترحابا بقدوم جورج ثم سلمه خطابا وهو يقول له بحزم وحسم - كأن جورج فى ميدان حربى يتلقي أوامره من قائده - :

إن هذا الخطاب الذى ستحمله فى رحلتك سوف تتوجه به إلى قائد حصن فرنسى مرابط عند نهر الأوهايو. . وهذا الخطاب يا جورج قد أهدرنا زمنا طويلا فى صياغته حتى يكون لائقا بحامل الرسالة ومن بعث بها ومن سيتسلمها، فكتب بصياغة ناعمة هادئة رقيقة لطيفة وإن كانت حاسمة وشديدة الوضوح والدقة. . إننا يا جورج نطالب قائد الحصن الفرنسى الذى أرسى قواعده داخل بلادنا أن يغادر منها فورا ودون إبطاء أو تلكؤ، ثم أن مهمتك لا تقتصر على الرسالة وتسليمها فقط بل عليك أعباء أخرى ينبغى إنجازها، على رأسها رصد عدد قبائل الهنود الحمر الذين يتعاونون مع قائد الحصن، ثانيا أن تعرف كم عدد الجنود الفرنسيين الذين يتواجدون فى هذا الحصن، ثم أخيرا ضرورة معرفة كم عدد الحصون التى شيدها هذا الجنرال فى تلك الفترة الزمنية.

وبعد أن أنهى تكليفاته سأله وهو يتوجه إلى مقعده: إذن علمت بما هو موكول إليك يا جورج، ومن ثم أردت أن أعرف متى ستذهب إلى هذا المكان؟

فأجاب جورج فى حماس، الآن يا سيدى. . . الآن سوف أقـوم بتجهيز أمتعتى وخيمتى وسلاحى وطعامى وشـرابى ومتطلباتى، وسأتجه على الفور دون إبطاء إلى حيث تريدون.

وشد حاكم الولاية على يد جورج واشنطن متمـنياً له التوفيق فى رحلته والعودة إلى مدينتـه سالما غانما، على أن هناك مكافـأة كبرى فى انتظاره حـال عودته إذا هو استطاع إنجاز مهامه المكلف بأدائها على النحو الذى يتطلع إليه حاكم المدينة.

كانت تلك المهمة التى كـلف بأدائها طبقا لمذكرات جورج قد جـرت وقائعها فى صباح الثلاثين من أكتوبر ١٧٥٣، أى أن جـورج لم يكن قد جاوز الحادية والعشرين من عمـره، وهو ما يبـرهن على مدى الثقة التى أولاها له الحـاكم فى تلك السن المبكرة، وربما لذلك حرص جـورج على إنجاح مهـمته حـتى يكون عند حسن ظن الحاكم.

على أية حال أعد جورج ما يلزمه من كساء وغذاء وشراب وسلاح وبوصلات وهدايا مناسبة للهنود الحـمر، ومرشد يهديه إلى الطريق الـصحيح أثناء هذه الرحلة الوعرة، ومترجم ينقل ما يدور بينه وبين القائد الفرنسى لتسهيل مهمته. .

وبعد أن أتم جورج جمـيع متطلبات رحلته الطويلة المحفـوفة بالأخطار سواء من الطرق الجبـلية المنحدرة، والشـاهقة، والملتـوية، والحلزونية، والدائرية، والـطولية، والعرضـية وكافـة الأشكال والأنواع، أو مخـاطر لقائه مع الجيـش الفرنسى، أو مع قبائل الهنود الحمر، أو مع عصابات الطرق التى لاهم لها سوى الانقضاض على أية قافلة تمر بالقرب من أوكارها.

وانطلق جورج ووصل فى بدء رحلته إلى فرد ريكسبورج لزيارة أسرته واحتضان والدته ووداعها، وقـد أخبر والدته بمهمته وفاتحـها فى حاجته لرجل يجـيد التحدث

باللغة الفرنسية؛ لكى يكون معينا فى هذه المهمة فأرشدته والدته إلى أحد أبناء فردريكسبورج الذين اشتهروا بإجادة اللغة الفرنسية وطلاقتها، وهو ما أطمأنت له نفس جورج، وعرض على الرجل عرضا سخيا أغراه بالسفر معه فى الحال. .

وانطلق جورج بصحبة المترجم إلى جبال البلوريدج بواسطة جواديهما، وبعد مرور عشرة أيام وصل الرجلان إلى أبعد نقطة وصلها جورج فى رحلته السابقة داخل الغابات، ومن ثم أدرك أنه بات فى حاجة إلى مرشد يهديه إلى حيث يوجد الحصن الفرنسى، وكان أن التقى عرضا مع رجل كان جالسا على باب حانوت صغير يدعى «كريستوفر جست» وعرض عليه فكرته فوافق الرجل وأغلق حانوته وامتطى هو الآخر جواده ثم أبدى اقتراحا لجورج بضرورة استئجار نحو أربعة من الرجال الأشداء الأذكياء الذين يجيدون لغات الهنود. . وبالفعل تمكن الرجل من إحضار هؤلاء الأربعة، واتجهت قافلة جورج واشنطن إلى قرية هاف كنج عند نهر الأوهايو. .

وفى أثناء الرحلة نما لعلم جورج من بعض المارة أن نحو ثلاثة من قبائل الهنود الحمر قد أعلنوا انضمامهم إلى الفرنسيين وأسقط فى يد جورج الذى أضحى لا يدرى أهؤلاء الهنود فى هاف كنج أعداء لنا أم من أصدقائنا؟!

وقبل أن يقترب جورج من أبواب المدينة بعد رحلة طويلة تمت وسط الأنواء والرياح والعواصف والأمطار الثلجية وغيرها من المصاعب المناخية وقف جورج بالقرب من رافدان من نهر الأوهايو لدراسة المكان بدقة وعناية.

ومن خلال دراسة جورج علم أن هاف كنج كان رافضا للوجود الفرنسى رفضا قاطعا حيث أنه يزعم أن الأراضى التى استولى عليها الفرنسيون تقع ضمن أملاكه، وكان الفرنسيون قد أدلوا كذبا أن هذه أراضيهم وقد ردت إليهم وهذه فرية حيث أنها تاريخيا أرض هندية.

وراح جورج ينصت لمحدثيه للوقوف على حقيقة ما يجرى من حوله فى تلك المدينة، وظل منتظرا حتى يتلقى ردا من هاف كنج بالدخول إلى مقره وبالفعل بعث هاف كنج بثلاثة من رجاله لاصطحابه إلى مقره لتبادل الحديث حول طبيعة المهام المكلف بها.

وراح جورج يشرح لهاف كنج الغرض من تلك الرحلة، وما يمكن أن يترتب عليها فى حال نجاحها أو فشلها، وانعكاسات ذلك على مدينة السيد هاف كنج نفسه، وهو ما يتطلب دعم المدينة ورجالها لإنجاح مهمته فى طرد الفرنسيين سلما بدلا من اللجوء إلى الحرب، والشاهد أن هاف كنج أرسل مع جورج نحو ثلاثة من رجاله لاصطحابه وإرشاده إلى الحصن الفرنسى.

وعلى مدار أربعة أيام تبع جورج أثر الهنود الحمر الذين بعث بهم هاف كنج حتى وقعت أعينهم على متجر كان يرفرف عليه العلم الفرنسى الأبيض الذى بدا جميل الصورة برسوم السوسن المذهب، وكان فى حماية أحد الرجال الذين بدت ملامحه تجمع بين الهنود والفرنسيين، وقد أخبرهم أن الحصن يقع على بعد خمسين ميلا ثم أردف الرجل قائلا: إن الإنجليز لا يدركون قوة الفرنسيين، وإن الإنجليز أسرى الأوهام إذا هم ظنوا أنهم يستطيعون طرد القائد الفرنسى وجنوده، وهم لن يرحلوا، ثم إن الحقيقة فى صالحهم، فالأرض هى أرضهم بالفعل، فأراضى وادى المسيسبى والأوهايو كلها من اكتشافات الرائد الفرنسى (لاسال) الذى وطئت قدميه عليها منذ عشر سنوات.

* * * *

قبل أن يقترب جورج من الحصن تذكر وهو يمضى فى طريقه على صهوة جواده أن هذه الأراضى هى التى منحها ملك الانجليز لشركة الأوهايو، وكان

لذلك معنى خاص فى تقـدير جورج، إذ كان شقيقـه لورانس يشغل منصب رئيس هذه الشـركـة حين تم منح الملـك هذه الأراضي، ومن ثم كـان - حـسب رواية لورانس - يسعى إلى تحصين هذه الشركة من غـارات الجيش الفرنسى، بيد أن المنية قد وافته قبل إتمام رغبته، ومن ثم كانت الفـرصة مواتية للفرنسيين لإرساء قواعدهم وتشييد حصونهم.

وبعد أن جالت تلك الخواطر فى رأس جورج وجد نفـسه على مشارف القاعدة الفرنسية وقد أحسن الحاكم استـقباله بوصفه الصاغ جورج واشنطن، وقد تـسلم منه الخطاب فى مودة واحتـرام ثم سرعان ما كتب رداً عـلى ما ورد فى خطاب الحاكم الإنجليزى بعبارة موجزة قائلاً: لن أرحل!

وبعد أن قوبل جورج بحفاوة وترحاب وتوديعه بنفس درجة الحرارة والمودة، عاد إلى بلاده حـاملا مـعـه الخطاب الموجز الذى بـعث به القائد الفـرنسى إلى الحـاكم الإنجليزى، وفى طـريق عودته واجه جـورج المتاعب والصعـاب مرة أخـرى بسبب مـوجات البـرد القارس والرهيب خـاصة وأن الرحلـة قطعت عند ذهابه أكثـر من ستـمائة ميل ومثلهـا بالطبع فى طريق عودته، وهى مـسافة طويلة ومرهقـة ووعرة وشاقة خاصة أنها تمت فى شهر ديسمبر وما أدراك ما ديسمبر.

وفى طريق عودتهما واجه جورج ورفيقه الموت أكثر من مرة، حيث تجمدت كل الأشياء من حـوله بفعل الأمطار الثلجيـة التى لا تتوقف، ومن ثم كادا يغرقـان معا عند عبور أحد الأنهار المتجمـدة، وقد سقط جورج من بين الثلوج فى ثغرة كادت تهوى به إلى قاع النهر. . ثم واجه الموت حين أطلـق عليهما أحد قطاع الطريق من الهنود الرصاص طمعا فيما كان فى حوزتهما من مال وهدايا لولا عناية الله لهما.

* * * *

وفي صبـاح السادس عـشر من شـهر يناير ١٧٥٤ وصل جـورج واشنطن إلى مدينة وليامـز برج الأمر الذى أثار دهشة الحاكم الذى فـوجيء بأن جورج واشنطن واقفـا منتصبـا بقامتـه الفارعة أمامـه، ثم عاد أدراجه بعـد لحظات وقد بدا سعـيدا مستـبشرا من مـلامح جورج، وها هو سـوف يقص عليه مـا حدث فى رحلـته الخطيرة، وها هى المعلومات سوف يعرفها حـول حقيقة الموقف الفرنسى ومدى قوته وولاء الهنود الحمر ونواياهم. مستقبلا من هذه الأراضى.

وعلى الفور قدم جورج تقريرا وافيا شافيا للإجابة على كل هذه التساؤلات التى كانت بمثابة صـداع يدق رأس حاكم الولاية بعنف، ولا سبيل له للحـصول على ما يشفى غليل هواجسه وظنونه التى كانت تفترسه كلما ران بخاطره هذا الأمر.

* * * *

بعد أن نجح جـورج فى إتمام مهمـته الأولى والحصـول على جمـيع المعلومات والبيانـات التى كان يتطلع إليها حـاكم الإقليم الإنجليزى. . كلف مرة أخرى بـالقيام بمهمة أخرى فى نفس المكان بعد مرور حوالى أربعة أشهر من عودته، وذلك لوضع حد فاصل للوجود الفرنسى فى أراضى الأوهايو.

وتوجه جورج على رأس قافلة عسكرية حامـلاً معه أمر الحاكم العام، ولم يكن خطابا كسابقه خاصة وأن الأنجليز كانـوا قد قرروا المضى قدما فى بناء أحد الحصون على رأس مدينة هاف كنج ولكن تصدى الفرنسيون لهذا المخطط حين استولوا على شحنة الأخـشاب التى كـانت قد وصلت لتدشين الحـصن، وهو التصـرف الخطير الذى عجل المواجهة العسكرية بين البلدين.

وعند منتصف الطريق وبالتحديد فى منطقة «جـريت ميدو» أقام جورج معسكرًا خاصا بفرقته العسكرية فى بقعة تحاصرها التلال والربى من كل جانب، ثم أنشأ فى

التو حصنا مؤقتا ولكن اختيار هذه البقعة المكشوفة كان اختيارا غير موفق، وهو ما يبرهن على جهل جورج بأبسط العلوم والفنون القتالية.

وفي ساعة متأخرة من ليلة شتاء كانت مطيرة وجليدية استقبل جورج أحد رسل هاف كنج حاملا معه رساله جاء فى متنها أن الفرنسيين قد بلغوا أماكن قريبة منهم للغاية ويقدر عددهم بنحو ثلاثين رجلا وربما أكثر من ذلك قليلاً.

وظن جورج واشنطن أنهم ربما كانوا جواسيس وأن الفرنسيين قرروا مباغتتهم دون إنذار ومن ثم هرع إلى إعداد رجاله وتجهيز عتاده لمواجهة وشيكة بين ساعة وأخرى.

ووقع اختياره على أربعين من الرجال الأشداء، ومشوا فى بهيم الليل المطير يقتفون أثر الهندى رسول هاف كنج وشقت خيولهم الغابات التى كانت سابحة فى مياه الأمطار حتى وجدوا أمامهم هاف كنج نفسه، وعند بزوغ خيوط نهار جديد وقف الهندى وهو يشير بأصبعه ناحية حفرة عميقة فى الأرض قائلاً:

الفرنسيون هنا يا سيد جورج!!

لم يتردد جورج واشنطن فى إصدار أوامره بإطلاق النار على هؤلاء الجنود الفرنسين ولم يشأ الفرنسيون الرد على قوات واشنطن حيث أعجزتهم المفاجأة التى كانت لصالح واشنطن ورجاله، وعلى أثرها وقع نحو عشرة قتلى وفى طليعتهم قائدهم ووقوع الباقين فى قبضة الأسر، الأمر الذى بعث على نفس جورج البهجة والسرور رغم الفزع الذى أصابه بعد إطلاق الرصاص الذى سمعه عن قرب لأول مرة فى حياته بعد حادث إطلاق الرصاص الأول الذى تعرض له على يد الهنود الحمر، لكن لم يكن بمثل هذه القوة والعنف.

وبعد أن احتفل جورج وجنوده مع هاف كنج بالانتصار الساحق الذى حققه فوجىء فى الثالث من شهر يونيه بقدوم نحو خمسمائة جندى فرنسى تملكتهم ثورة

غضب ومن حولهم عـدد ضخم من جنود الهنود الحمر لمهاجـمة واشنطن ورجاله ثأراً لزملائهم الذين قتلهم والذين مازلوا فى قبضة الأسر، وزعموا أن هؤلاء الذين قتلهم واشنطن ورجـاله إنما كانوا رسل سلام يحملون رسالـة إلى الحاكم الإنجليزى ولم يكن لهم شأن بالقتال.

كـان عدد رجـال واشنطن فى هذا اليـوم البـائس أقل من نصف عـدد الجنود الفرنسيين الذين وفدوا لمهاجمـته، فضلا عن هروب هاف كنج وجنوده، حيث نجا بنفسه من الوقوع فى مغامرة عسكرية لا ناقة له فيها ولا جمل، ومن ثم آثر الابتعاد حتى لا يقع قتيـلا أو أسيراً راجياً من الله أن يقضى الطرفان على بعضـهما البعض لعل الأمور تعـود إلى سابق عهـدها قبل ظهور تلك القـوات النظامية سـواء كانت الفرنسية أو الإنجليزية.

وفى داخل حـصن واشنطن أبلى رجـاله بلاء حـسنا وفقـا لما فى حـوزتهم من إمكانات وقدرات، وإن اضطروا فى آخر النهار إلى إعلان الاستـسلام.

وعلى ضـوء شموع أطفـأتها الرياح أكـثر من مـرة تلا الفرنسـيون نص وثيـقة الاستسـلام كى يذيلها جورج بتوقـيعه، وهى تنص على أن تستـرد فرنسا جنودها الأسرى وأن يتعهد جورج بألا يعود مرة أخرى إلى هذه الأراضى قبل مرور عام، وقد اضطر جورج تحت وطأة الموقف العسكرى المهين أن يوقعها فى ضيق وأسى.

وبعد أن قام بالتوقـيع سمح له قائد القوة الفرنسـية بالمغادرة والعودة هو وجنوده إلى ولاية فرجينيـا، وقد ألقت هذه الهزيمة بكل تبعاتهـا على معنوياته التى بدت أنها فى أسفل سافلين على عكس ما كان عند عودته من رحلته الأولى.

وربما أدى تدهور حالتـه المعنوية إلى تعرضه لوعكة صـحية ألزمتـه الفراش بضع أسابيع فى بيته الكائن بمنطقة ماونت فرنون، أثناء ذلك وصلت إلى إنجلترا عدة نماذج

من الوثيقة التى قام واشنطن بتوقيعها، وعندئذ أدرك الانجليز أن الفرصة باتت مواتية للقضاء على الفرنسيين المتواجدين علـى الأراضى الأمريكية وذلك قبل أن يستفحل خطرهم وتقوى شوكتهم إذا تحالف معهم الهنود الحمر.

وفى بداية الصيف أقبل الجنرال «برادوك» قادما من إنجلتـرا ليرأس كتيبة الجنود، وقد اضطر جورج واشنطن أن يعمل تحت لوائه، ولكنه تلقى تكليفا آخر يهدف إلى السيطرة على الحصن الكائن عند رأس نـهر الأوهايو، ولأنه كان يشكو ألما في بطنه فقد خشى أن يمتطى جواده رغم مهارته ورشـاقته وبراعته فى ركوب الخيل، بيد أنه اضطر أن يستقل إحـدى العربات المخصصة لنقل العتـاد الحربى وظل بها ممدا على ظهره، وكـانت العربة تهـزه هزا قويا وكـان يشكو ويتذمـر من الوقت الذى أهدره الجنرال الإنجليزى، لقد كان الجنرال «برادوك» قائدا طاعنا فى السن، وإن كان يتمتع بقدر وافـر من الخبرة والحنكة، ولكن كـان جنوده على العكس من ذلك لا يملكون سوى خبرات المواقع التى جرت فقط فى أوروبا.

ولم ينخـرط أى منـهم فى أية مـوقـعـة برية، ولم يكـونوا قـد سـمـعـوا عن وحشيةالحروب الهندية ودمارها الرهيب، وقد جـهلوا أن الهندى يظل مختبئا خلف شجرة ثم يزحف نحو فـريسته حتى تتسنى له الفرصة للانقـضاض عليها فى الوقت الملائم.

وبينما كـان الإنجليز فى طريقهم إلى مواجـهة الحصون الفـرنسية فوجـئت القوة الإنجليزية أثناء سيـرها فى قلب الغابات والأحراش الجبلية بمن يطلق صـرخة مدوية من حولهم لـيعقـبها وابل من الطلـقات النارية التى أزهقت منهم أرواحـاً عديدة، وأشاعت بينهم جوا من الهرج والمرج والفوضى التى سادت المكان، الأمر الذى دعا الجنرال برادوك للصـراخ فى وجه رجاله من أجل لمـلمة شملهم بعـد أن تبعثرت

قوتهم، وقد كان جورج على حاله يشكو آلام الحمى التى أصابته ولم يكن قد شفى منها بعد.

ورغم ذلك فقد انهال الرصاص من حوله حتى كاد يسقط قتيلا من هول الطلقات التى كانت تتساقط بالقرب منه، حتى أن جواده الذى كان يعشقه قد سقط أثر طلقات نارية أخترقته فأردته صريعا.. ومن ثم امتطى جواداً آخر كى ينجو بحياته من موت بات وشيكا وعلى حافته، رغم ما أبداه من شجاعة وجسارة وبسالة رغم شدة ألمه فقد كان يواجه العدو وبشراسة وحدة لا نظير لها حتى كان مضربا لأمثال الجنود، نموذجا للفارس والمقاتل والجندى الصنديد الباسل.

الواقع أن جورج واشنطن الذى حاصره المرض وكاد أن يشل حركته وانهمر عليه الرصاص من كل جانب لم يكن يبالى بمرضه أو بالرصاص الذى يتساقط كحبات الثلج من حوله، بيد أنه كان يشق غمار المعركة يمينا ويساراً حتى أثار عاصفة من الدهشة والإعجاب لكل من رآه وسط أتون تلك المعركة الشرسة العنيفة.

ولكن على الرغم من الأداء البطولى لواشنطن ورفاقه إلا أن الهزيمة القاسية كانت من نصيبهم، حيث تعرض القائد برادوك إلى إصابة خطيرة كادت تودى بحياته وقد نقله واشنطن بنفسه إلى ساحة للعلاج ظل بها نحو عشرة أيام حتى لفظ أنفاسه الأخيرة متأثراً بإصابته البالغة، وقد ورى جثمانه التراب بعيداً عن عيون الهنود الذين يصطادون فروات الرؤوس.

وفى عام ١٨٧٥ عاود جورج واشنطن الكرة مرة أخرى بصحبة الجنود الإنجليز إلى حصن أوهايو.. وما أن أوشكوا على الاقتراب من الحصن حتى أشعل الجنود الفرنسيون النار داخل الحصن ثم غادروه على أثر ذلك.

وأمام هذه الواقعة فـقد الفرنسيون كل ما كان فى حـوزتهم داخل منطقة شمال الولايات المتحـدة الأمريكية، ومن ثم صنع جـورج لنفسه اسـما طيبا وبراقـا عقب سقوط الحصن وخروج الفرنسيين.

وفى إحدى المؤتمرات الشعبية، والاجتماعات السياسية التى أقامتها ولاية فرجينيا عقب عـودة الجيش معلنـا انتصاره على الفـرنسيين أشاد الرئيـس بجورج واشنطن وهنأه على انتصاره الساحق وعودته المظفرة قائلا:

«دعونى أتوجه بالشكر والعرفان، ثم التهنئة لبطل فرجينيا على ما أبلاه وما قدمه لبلاده من شـجاعة وفداء وبذل وعطاء وسلوك اتسم بحـسن الخلق وإصراره على طرد الفرنسيين، سـواء كان ذلك من خلال انتهاج السلـم والحوار أو اللجوء للعنف واضرام النار وهو ما كان، وإن كانت قد اشتعلت بأيديهم لأنهم كانوا على يقين أننا لن نهدأ ولن نلين أو نستسلم حتى تعـود لنا أراضينا التى سلبوها منا، وكان جورج واشنطن هو الذى كان وراء هذا الانتصار الساحق وطرد الغزاة من أراضينا».

من ناحيتـه أراد جورج واشنطن أن يرد على الحاكم تحيته ومـدحه وإطراءه، بيد أن الجماهير الغفيرة كانت قد احتشدت من حوله تهنئه وتقبله وتعانقه وتحتضنه، ومن ثم عجز عن الوصول إلى المنصة رغم محاولاته فبادر الحاكم العام قائلا:

«إجلس مكانك يا سيـد جورج.. إن تواضعك يعادل شجـاعتك قيمـة وقامة، وهذا فى حد ذاته يفوق قوة أية لغة أخرى فى تقديرى.. اجلس يا سيد واشنطن».

* * * *



الفصل الرابع
زواج جورج واشنطن

في مساء السادس من يناير ١٧٥٩ شهدت مدينة وليامز برج حفلا رائعا بمناسبة زفاف بطل فرجينيا جورج واشنطن على أرملة شابة كانت تتسم دون غيرها بالثراء الفاحش والجمال الطاغي وتدعى مارثا كوستيس.

كان جورج قد شاهد تلك السيدة أثناء حفل زفاف في إحدى الكنائس، وقد بادلته إعجابا بإعجاب حيث التقت عيونهما للمرة الأولى في هذا الحفل ولم تبارح خياله منذ تلك اللحظة، وبالتحديد في أواخر أكتوبر عام ١٧٥٨ وقد راح يستفسر عن تلك الفتاة التي تتمتع بقدر عال من الجمال، فأخبره أحدهم أنها أرملة لأحد أثرياء فرجينيا وأنها تملك أموالا طائلة وأراضي شاسعة وطفلة جميلة وطفل رائع، وتتطلع للزواج لمن يدير لها تلك الثروة لكنها لا تريد أي أحد بل هي في انتظار من تطمئن له نفسها ويرتاح له قلبها؛ لأنها ترغب في الارتباط بمن يمنحها الحب والدفء والحنان كما كان زوجها من قبل أن يموت ويرحل عن الدنيا، ووجد جورج نفسه هو الرجل المناسب لتلك الأرملة الشابة الجميلة، وهو الذي يهوى إدارة الأملاك الزراعية ولا غرابة في ذلك فقد كان ولا يزال يملك أكثر من ثلاثة آلاف من الأفدنة وأضحت مزرعته من أكبر وأوسع المزارع وأوفرها وأكثرها إنتاجا، وراح جورج يتساءل في نفسه لماذا لا يتزوج تلك السيدة إنها جميلة وغنية وذات سمعة طيبة وفي أشد الحاجة إلى رجل يحميها ويحمي أولادها وممتلكاتها، وهأنذا هذا الرجل الذي يملك الصفات والسمات التي تبحث عنها تلك الأرملة الفاتنة، ثم ماذا في الأمر؟ إنني أعتبر أن طفليها هم أطفالي بل وسوف أعتني بهما فلا ذنب لهما أن

مات والدهمـا وتركهما، ولعلى أضـفى عليهما حنانا فـقداه ودفء تاقا إليـه وحبا حرمهما موت أبيهما منه. فلماذا لا أكون أنا هذا الرجل؟

وأرسل جورج رسل الحب والوئام إلى تلك الأرملة التى كانت بالطبع تسمع عن جورج وبطولاته ودوره فـى حروب الفرنسـيين وانتصـاراته وانكساراته واقـترابه من الحاكم الانجليزى وحظة الوافر من المال والثروة والضيعة والأراضى والذكاء والحكمة والعطاء والصداقات وكلها مسوغات أعانت جورج على الارتباط بتلك السـيدة الفاتنة الحسناء.

وعلى الفـور وافقت ودون تردد علـى عرض جـورج واشنطن، وقررا تحـديد موعد الزفاف بعـد أن اشترطت حسن معاملة أطفالهـا، وعدم التلويح على نحو أو آخر بالاستـغناء عنهما أو الضيق منهـما، وهو الشرط الذى وضعتـه الأرملة ضمانا لحياة كريمة وسعيدة، وهو أيضا ما أوفى به جورج طوال سنوات زواجه منها.

الشاهد أن جورج اصطحب عروسه إلى إحدى المدن البعيدة لقضاء شهر العسل فى الشتاء ثم سرعان ما عاد إلى مدينة وليـامز برج التى كانت بها كل أنواع الترفيه والمتعة والسعادة والمرح.

وبعد انقضاء الشـتاء وحلول فصل الربيع حزمت أسرة جورج واشنطن أمتـعتها وحملتها على متن عربة خـشبية ضخمة يجرها خيول شابـة عفية تشق الأرض شقا لتبلغ بيت واشنطن فى ماونت فرنون.

وأمام البيت هبطت السـيدة زوجته وطفليـها باتسى وجاكى ودخلا بصحبة جورج إلى البيت الواسـع الكبير، وقـد كان الخدم والحـشم فى استـقبال الأسـرة الجديدة وأبدت العروس ترحابهـا بهذا البيت الذى شعرت معـه بالألفة والترابط منذ الوهلة الأولى رغم أنها لم تكن قد رأته من قبل.

صحيح أنها أبدت بعض الملاحظات الهامة لتغيير بعض من ملامحه واستبدال بعض أثاثه ليتناسب مع أسرة جديدة بعد أن كان مناسباً لفرد واحد هو جورج واشنطن الذى وافق على الفور مبديا تفهمه لهذا المتغير الجديد، ومن ثم وجب عليه الرضوخ لملاحظات زوجته التى كانت محل اهتمام منه ومن مساعديه الذين دونوا ملاحظاتها فى مفكرة لبدء العمل فى التو امتثالا لرغباتها وأوامرها.

وصعدت الأسرة إلى الطابق الثانى وكان المنظر رائعا حيث نهر البوتوماك والحدائق الغناء تحيط بالقصر من كل مكان ثم تنقل بهم إلى الأماكن المخصصة لإعداد الطعام وغزل الصوف وغرف نوم الخدم.

ثم سرعان ما ألقت الزوجة بكل ثقلها على السرير الحديدى بعد عناء يوم طويل وهى فى أوج سعادتها وبهجتها من هذا البيت الذى لم تشعر نحوه بالاغتراب أو الضيق.

أما واشنطن فقد كان ملماً بأصول وقواعد الزراعة ومن ثم كان قد بذل قصارى جهده فى زراعة الأرض عند مطلع الصيف خاصة وأنه كان محبا للزراعة وعاشقا لرائحتها، ويقدس رؤية الأرض السوداء التى شقها بمحراثه وبذرها بحبوبه قد انبتت واخضرت وتورقت وأثمرت وحصدت وأنتجت.

كان واشنطن جادا فى أداء عمله حيث اعتاد على ذلك منذ أن كان مسّاحا لا محل للهزر أو الاستخفاف أو تأجيل عمل اليوم إلى الغد وما بعد الغد، لكنه كان معروفا بصراحته وشدته وإصراره على إنهاء وإنجاز المهام الموكولة إليه أو تلك التى أوكلها هو لنفسه رافضا الاعتماد على الآخرين.

كان أيضا بارعاً فى تدوين الحسابات والأرقام، وتسجيل المذكرات التى لم يكن يمل من كتابتها يوميا واصفا كل ما يدور من حوله سواء الأحداث الأسرية العادية أو المناخية أو السياسية أو الإنتاجية.

الشاهد أن حياة جـورج الجديدة وسط زوجته وطفليها كانت هانئـة وسعيدة ولم يؤرقها فيها سوى إصابة زوجته بمرض الحصبة كما ذكر هو فى معرض مذكراته وأنه قد اسـتدعى سـالى فيرفـاكس ابنة اللورد لزيارتها ورؤيتـها للوقـوف على حالتـها الصحية.

وكان يداوم على زيارة أمـه وشقيقـته «بيتى» من وقت لآخر، ويمد يد المـساعدة لأشقائه سـام وجاك وتشارلى، وأنه - كمـا يذكر أيضا فى سطور مـذكراته - كان يهوى زراعة أشجار الصنوبر فى فصل الربيع، وأشجار الخوخ والكريز وراح يجرب آلة جديدة لزراعـة الشوفـان والشعيـر، وأنه كم تناول طعام الغـذاء فى بيت جورج وسالى فيرفاكس ثم كثيرا ما قام بدعوتهما على الغذاء فى منزله فى ماونت فرنون.

وكانت زوجته مارتا الرقيقة منهـمكة كعادتها فى شغل الجوارب بأبر التريكو وأنه التقى زنجيا مريضا فقام بنقله إلى بيته لمداواته والاعتناء به، وأن كلبة البيت أنجبت نحو ثمانيـة وأطلق على كل جرو منها اسـما، وطلاها بالدهن حين تعـرضت للإصابة بالجرب.

وأنه قضى ليلة فى مـرقص بالأسكندرية وكانت الموسـيقى رائعة وقـد حدث أن توجه ذات مرة لصيد البط واقتناص الثعـالب وصيد السمك ثم حرص على وصفة للحياة الزوجية السعيدة التى يعيشها، وأن أحواله بعد الزواج تختلف كليا عن أحواله قبله، وأن الزواج نعمة والله قد أنعم عليه بزوجة رقيقة ناعمة حنون ذكية بارعة غير ثرثارة ولها طفـلان جميلان بادلهمـا حبا بحب، ولم يكن أبداً زوجا لوالـدتهما بل كان جورج بمثابة الأب وربما كان أكثر حنانا من أبيهما لو كان على قيد الحياة.

* * * *

الفصل الخامس
جورج والانتخابات التشريعية

بعد أن أصبح جورج واشنطن هو أقرب الناس إلى قلوب أهل فرجينيا وأكثرهم إخلاصا وكدا وعملا فى سبيل مصلحتهم، أشار البعض عليه بضرورة خوض انتخابات المجلس التشريعى لفرجينيا ؛حتى يتمكن من خدمة الجميع ومحاولة تذليل الصعاب والمتاعب التى تواجههم.

وأمام رغبة جماهير فرجينيا وآمالهم فى تنصيب جورج عضوا فاعلا عاملا فى المجلس التشريعى اضطر جورج للخضوع أمام رغبة أهالى ولايته؛ لعله يستطيع أن يسدى خدماته إليهم من خلال هذا المجلس النيابى الذى يمنح صلاحيات واختصاصات وامتيازات واسعة لأعضائه، وفى عام ١٧٦٠ خاض جورج انتخابات المجلس للمرة الأولى فى حياته، وقد تمكن من الفوز على منافسه بفارق فى الأصوات برهن على شعبية جورج الواسعة بين أهالى فرجينيا ومدى المسئولية التى ألقيت على كاهله من جراء هذا الفوز الساحق.

وبالفعل أضحى جورج عضوا نيابيا لا يشق له غبار، يصول ويجول ويستفسر ويشرح ويسأل ويلاحق ويطارد ويلح ويفرح ويلوح بيديه، ويضرب الأرض بقدميه والدماء تغلى فى عروقه من أجل حياة كريمة هانئة لأهالى فرجينيا الذين أحبوه فأحبهم ومنحوه أصواتهم فلم يبخل عليهم بجهده وعرقه وكده وكفاحه ونضاله حتى أصبح بمرور الوقت أبرز وألمع عضو تشريعى داخل المجلس، ونجما لامعا فى سماء المدينة، وقائدا سوف يكون له شأن عظيم كما رأى البعض ذلك من خلال شخصيته وإدارته وعلاقاته ومنهجيته وأدواته وطريقة تناوله للأمور.

في نفس العام ١٧٦٠ تلقت فرجينيا أنباء سارة تشير إلى اعتلاء الملك جورج الثالث عرش الإمبراطورية الإنجليزية، وقد كان لهذا الخبر أثرا حميدا على المستعمرات الإنجليزية وتوابعها، ومن ثم لم تكن فرجينيا بعيدة عما يجرى داخل الدائرة البريطانية بوصفها واحدة ضمن مستعمرات التاج الإنجليزى.

واستقبل أهالى فرجينيا الخبر بالرقص والغناء والدعاء الوطنى المأثور: «عاش الملك فليحفظ الله الملك». . وراح البعض الآخر يتناول المشروبات الكحولية طربا وفرحا بتلك المناسبة الوطنية.

ورغم الحفاوة التى قوبل بها ملك الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس من جميع أهالى المستعمرات الإنجليزية فقد ألقى قبضته الحديدية على رؤوس تلك المستعمرات، حيث فرض العديد من القوانين الاستثنائية التى تهدف إلى تقييد الحريات، وتكميم الأفواه ومصادرة الأراء الحرة المستنيرة التى قد تتعارض مع سياسة الإمبراطورية، وهو ما أدى إلى استهجان أعضاء المجلس التشريعى وثورتهم ضد سياسة الملك الجديد.

الشاهد أن الحكومة البريطانية أصدرت قانونا يتعلق برسوم التمغة، وأمرت المجالس التشريعية فى جميع المستعمرات الإنجليزية البدء فى مناقشة بنوده والإقرار بما جاء بها من أجل تمريره فى أقرب وقت، حتى يمكن العمل به طبقا للوائح، وفى داخل المجلس التشريعى بفرجينيا ثار النواب وهاجوا وانتفضوا ضد هذا القانون بعد أن ضاقوا ذرعا بسياسة ملك البلاد جورج الثالث الذى لا يدخر وسعا فى التضييق على الشعوب التى تدور فى الفلك الإنجليزى.

الحاصل أن جورج بذكائه السياسى أدرك أن ثورة النواب وهياجهم ضد سياسة الملك قد لا تؤتى ثمارها، وربما تدفع بفرجينيا إلى مجهول لا تحمد عقباه خاصة

وأن الملك جورج الثالث اشـتهر دون غيره بضـيق أفقه ونفاد صـبره وهو ما يتطلب التعقل والتروى عند تناول أية قضية يمكن أن تؤثر بالسلب على فرجينيا وشعبها. .

وبعد أن أعلن النواب تذمـرهم وسخطهم واستيـاءهم من رسوم قانون التـمغة الجديد، وقف جورج واشنطن بقـامته الفارعة ومـلامحه الجادة المتجهـمة وقد أبدى اقتراحا يقضى بضرورة الكف عن الهـجوم الحاد والعنيف على الملك جورج الثالث مع التعجل فى كتابة رسالة عاجلة يوقع عليها جميع أعضاء المجلس تعبر عن ضيق الأعضاء بما ورد فى قـانون التمغة، واسـتحالة تطبيـقه على أرض الواقع، لما له من مردودات سلبية وخطيرة على حياة الناس، وهو ما قد يدفع بالأمور إلى ما لا يمكن أن يتوقعه أحـد ولاقت الفكرة قبولا وترحابا من جمـيع أبناء المجلس التشريعى بما فيهم الأعضاء الذين صرخـوا وهاجوا وثاروا وصاحوا بأعلى صوتهم للإعلان عن رفضهم لهذا القانون.

لكن على الرغم من وجـاهة فكرة جورج وحكـمتهـا البالغـة فقـد رأى رئيس المجلس أن هذه الرسالة فى تقـديره بمثابة تهديد وإنذار لجلالة الملك جـورج الثالث وهو ما لا يسـتقيـم بحال من الأحوال مع جـلالته، ومن ثم رفض أن يبـعث بها، فضلا عن أنه - رئيس المجلس أصـدر قراراً عاجلا يعبر عن مخـاوفه وهواجسه، وذلك بحل المجلس التشريعى تجنبا لغضب الملك الذى سـوف تصل لمسامعه أنباء ما حدث وقد يتطلب الأمر إنزال العقـاب برئيس المجلس، الذى اضطر صاغرا لتأمين موقـفه وإبداء رأيـه فيمـا حدث مـن اضطرابات وذلك بحل المجلس التشـريعى، وحدث أن قوبل هذا القـانون التعـسفى بمظاهرات واحـتجاجات صاخبـة فى جميع المستعمرات الإنجلـيزية، الأمر الذى أدى إلى تجميده وسحبه من المجـالس التشريعة إيثاراً للسـلامة بعد أن كشرت الجـماهير الغاضـبة عن أنيابها وثارت أعـصابها وإن استطاعت أن تتحكم بها فى تلك المرة.

ولكن كعادة المستعمر الإنجليزى فقد التف حول القانون العرفى وذلك بإصدار قانون آخر يقضى بضرورة فرض رسوم ضريبية على جميع السلع المباعة والواردة من إنجلترا ومن ثم راحت السلطات البريطانية تفرض رسوما باهظة على الزجاج والأطباق ومواد البناء والشاى والألوان والدهانات والملابس والمنسوجات.

ولأن أبواب (الكابيتول) أو المجلس التشريعى بفرجينيا كانت مغلقة أمام الأعضاء ولم يعد بمقدور أحد منهم إبداء رأيه من حيث القانون والدستور داخل قاعة المجلس فقد اضطر الأعضاء على التوجه إلى مطعم (رالى) للاجتماع بداخله من أجل مناقشة هذا القانون التعسفى الذى أدى إلى تذمر جميع فئات أبناء فرجينيا.

وعند بدء افتتاح الجلسة داخل مطعم رالى كان جورج واشنطن واقفا وفى يده ورقة تأملها طويلا قبل أن يقرأ منها ثم، سرعان ما راح ينظر إلى الجميع فى ثبات كأنه يطالبهم بالكف عن الكلام حتى يبدأ كلمته التى ينبغى أن يسمعها الجميع، وبالفعل اضطر جميع الأعضاء الجالسين والجماهير الغفيرة التى كانت تقف خارج المقهى إلى الالتزام بالصمت لسماع ما سوف يرد على لسان جورج واشنطن هذا الشاب النابه والواعد... ثم راح جورج واشنطن يقول بصوت عالى النبرات:

هذا الذى فى يدى خطاب وارد من فيلادلفيا يبلغنا أن شعبها اتفقوا جميعا على مقاطعة السلع التى فرضت السلطات الإنجليزية الضرائب عليها بغير وجه حق وبما لا يتناسب مع الأعباء المعيشية الثقيلة التى يتحملها المواطن ويئن منها.. وقد قرر أهالى فيلادلفيا عدم الشراء من تلك السلع إلا بعد أن تتراجع الحكومة فى لندن وتسحب هذه القوانين الظالمة؛ ولذلك اقترح عليكم أن تتخذوا من مثل هذا التصرف العبقرى نموذجا يحتذى به من أجل التعبير عما فى صدورنا، ومن ثم أدعوكم جميعا ودون أن يستثنى أحد بمقاطعة هذه السلع وعدم شرائها إلا بعد أن يتقرر رفع الضرائب المفروضة عليها.

وقوبل اقتراح واشنطن بتصفيق حار وشعارات وطنية وكلمات حماسية من الجماهير والأعضاء معاً، وقد أبدى جميع الأعضاء موافقتهم على هذا الاقتراح وسرعان ما وردت أخبار تشير إلى أن أهالي مساشوستس وبعض المستعمرات قد قرروا فيما بينهم تنفيذ هذه القرارات داخل بلادهم احتجاجا واعتراضا على هذه الإجراءات الخانقة. وبدا للجميع أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، وأن الشعب إذا هو قد أراد الحياة فلن يستطيع أحد أن يمنعه، وأن غضبة الشعوب لا تبقى ولا تذر.

وبالفعل وفي عام ١٧٧٢ وبينما كانت الثلوج تتساقط، والرياح تشتد والعواصف تثور وتفور، والسماء ترعد وتبرق، والأرض تغرق في جليدها، في هذا اليوم العاصف المطير بالتحديد أقبل رسول من مطعم (رالى) لاهثا تكاد نبضات قلبه تسمع من حوله وقد حمل أخباراً مثيرة خطيرة من بوسطن حيث أكد أن ثلاث سفن مكدسة بالشاى قد وصلت إلى ميناء المدينة وأن بعض العمال ارتدوا أزياء الهنود الحمر وصعدوا إلى السفن الثلاث بحجة إنزال الشحنة إلى الشاطىء فإذا بهم يلقون بالشحنة في مياه البحر.

ولما نما ذلك للمسئولين أصدروا أوامرهم على الفور بضرورة إحكام الحصار على الميناء والتشديد على حركة الدخول والخروج منه للوقوف على حقيقة ما جرى داخل الميناء، ومن ثم توقف الميناء عن العمل وهو القرار الذى أصدرته السلطات الإنجليزية لتأديب ومعاقبة الأهالي الذين أرتكبوا مثل هذا العمل الخطير..

الغريب أن الملك جورج الثالث قد أصدر أمرا ملكيا بضرورة تأديب الأهالي ومطاردة العمال الذين أقدموا على مثل هذا السلوك الهمجى - كما يرا - وقد أوفد حامية إنجليزية مارست بعض من صور التعسف والإضطهاد لتفعيل قرارات الملك على أرض الواقع.

وجاء دور جورج واشنطن الذى كان ابن هذه اللحظة التى ولد من أجلها قائلا في بسالة وشجاعة وفداء الثوار والقادة العظام:

«أنا على أتم الاستعداد لتقديم جيش مكون من ألف رجل على نفقتى الخاصة وأقوده للدفاع عن بوسطن وفك الحصار الخانق على شعبها الشجاع».

ثم قام محامى جسور اشتهر هو الآخر بالشجاعة والإقدام معلنا أن يكون اليوم الذى أغلق فيه ميناء بوسطن يوم صلاة وصيام فى جميع كنائس مدينة ويليامز برج.

مضت الأمور على هذا النحو المتصاعد ضد الوجود الإنجليزى، خاصة وأن شعوب المستعمرات قد نفد صبرها بعد أن ضاق صدرها، ومن ثم لم تعد تبالى بالقوة الإنجليزية.

وقد تجلى دور قادة وزعماء هذه المستعمرات التى كانت ترزح تحت نير الحكام الإنجليز أن قرروا عبر المراسلات البريدية ضرورة الالتقاء معا لبحث الأمور علانية وعلى مرأى ومسمع من الجميع بدلا من المراسلات التى قد تتعرض للمصادرات أو بعض الإجراءات التسويفية لتعطيل أو تأجيل وصولها، فضلاً عما قد تحتويه وتتضمنه من معلومات لا ينبغى الإفصاح عنها أو كشفها، ووافق الجميع من قادة المستعمرات على اللقاء.

وجاء شهر يونيه ١٧٧٤ موعد أول لقاء لزعماء وقادة المستعمرات فى مدينة فيلادلفيا ليكون فاتحة خير ومقدمة تمهيدية للتحرر والاستقلال.

كان أهالى مدينة ويليامز برج قد وقع اختيارهم على سبعة من رموز العمل الوطنى لتمثيل فرجينيا فى مؤتمر فيلادلفيا المرتقب.

جاء على رأسهم باتريك هنرى ذاك الخطيب المفوه الذى كان يملك القدرة على زلزلة الأرض من تحت أقدام مستمعيه.. وجورج واشنطن الذى بدأ اسمه يلمع للمرة الأولى خارج فرجينيا من خلال هذا المؤتمر التاريخى.

وقد تحدث باتريك هنرى قائلاً قولته المشهورة حول شخصية جورج واشنطن: «أنا على يقين من أنه لا نظير لهذا الرجل فى فيلادلفيا بأسرها، حيث العقل الراجح والأفق الواسع والرأى السديد والفكر الرشيد ونبع المعلومات» وقبل أن يتوجه الوفد إلى فيلادلفيا قضى باتريك هنرى ومعه أحد المندوبين تلك الليلة فى بيت جورج واشنطن فى ماونت فرنون.. وفى مساء اليوم التالى وبعد أن تناولوا طعام العشاء أبلغهم الخادم أن الخيول قد تم تجهيزها وإعدادها، وهى فى انتظار لحظة وصولهم إليها..

وحين دقت ساعة الرحيل أسرعت مارثا زوجة جورج واشنطن تقول للزعماء الذين وقفوا لمغادرة المنزل والذهاب إلى فيلادلفيا: أرجو منكم أن تتخذوا داخل هذا الاجتماع موقفا أشد حزما لأننى على يقين لا يخالجنى الشك فيه من موقف جورج واشنطن ومن ثم أدعوكم لشد أزره وتعضيد موقفه.. أتمنى لكم التوفيق والسلامة والعودة الغانمة.

ثم اتجهت إلى جورج واشنطن صاحب الجسد الضخم والقامة الفارعة لتمسك بيده وترتمى فى أحضانه لتوديعه، كان جاكى كوستيس وبجواره زوجته الرقيقة يقفان معا بجانب والدته مارثا حين وثب الزعماء الثلاثة على ظهور جيادهم ومن خلفهم عدد هائل من الخدم حتى غابوا عن أنظار مارثا وابنها، وبعد أن كانت تلوح بمنديلها طوال رؤيتها لهم راحت تجفف دموعها بهذا المنديل وهى تدعو الله أن يرد لها زوجها سالما غانما، كان جورج يعلم أن مارثا سوف تشكو الوحدة بعد أن توفيت ابنتها باتسى فى صيف هذا العام، ومن ثم قرر أن يتزوج شقيقها معهم فى هذا المنزل وهو له بمثابة الأب حتى لا تفترس الوحدة مارثا، وهى الرغبة التى صادفت هوى لدى جاكى الابن، ومن ثم اضطر قبول هذا الاقتراح هو وعروسه بعد أن أدرك مغبة بقاء الأم بمفردها فى مثل هذا البيت الشاسع الضخم؛ خاصة وأن

جورج واشنطن بعد أن انخرط فى العمل السياسى لم يعد بمقدوره البقاء داخل البيت كما كان من قبل، وذلك لانشغاله فى خدمة الأهالى والجلوس معهم وبحث شئونهم، خاصة فى المرحلة الأخيرة التى شهدت تطورات حاسمة وخطيرة ما كان لمثله أن يتركها تتفاعل دون أن يكون مشاركا وصانعا وراسما ومخططا لأحداثها.

* * * *

فى بواكير شهر سبتمبر عام ١٧٧٤ بدأ مندوبو المستعمرات فى الكونجرس العام الأول يتوافدون على مدينة فيلادلفيا من مختلف الطرق المتعددة والمتشعبة والحلزونية والدائرية حيث استقل بعضهم عربات السفر العامة.. والبعض الآخر جاء على ظهور خيولهم وقد بلغ عددهم جميعا نحو واحد وخمسين عضوا ارتدوا جميعا قبعات مثلثة الأركان حيث وفدوا من جميع المستعمرات باستثناء مستعمرة جورجيا التى غابت عنها أخبار هذا المؤتمر التاريخى إلا بعد فوات الأوان..

كان الكل يترقب ويتلهف رؤية الزعماء الذين أقبلوا من كافة المستعمرات داخل أمريكا، وراح البعض يتطلع إلى ما سوف تقع عليه عينيه من ملابس وأزياء وقبعات وأشياء لم يرها من قبل. من جانبه فقد كان جورج واشنطن يتلهف على مشاهدة مندوبى بوسطن، صموئيل أدمز وابن عمه جون آدمز حيث تلقى أنباء تشير إلى تمردهما على التاج الإنجليزى وبدءا معاً العمل على التحرر من المستعمر الإنجليزى بكافة السبل. ولكن لم يكن جورج واشنطن واثقا من صحة تلك الأنباء وربما لذلك أراد أن يقف على حقيقتها بنفسه بدلا من الاستماع من الذين قد لا يحسنون نقل الأخبار ولا يأمنون عليها.

وفى ليلة الثامن والعشرين من سبتمبر توجه جورج واشنطن إلى المقر الذى ينزل فيه جون أدمز وابن عمه ليتجاذب معهما أطراف الحديث، وكانت هذه هى المرة

الأولى التى يتحدث فيها الرجلان معا رغم مرور ثلاث أسابيع على بدء المؤتمر وكان كليهما يرى الآخر في جلسات الكونجرس. . وربما أدرك واشنطن أن هذا الرجل ذو القامة القصيرة والبدن الممتلىء والشعر الأجعد، هذا المحامى من ماسوشوستس الذى يتجول بين الحضور هو نفسه جون أدمز. . ومن الثابت أنه أيضا قد وقع بصره على هذا الرحل الضخم جورج واشنطن ذلك المزارع الذى ألقت الشمس بلهيبها على بشرته، والذى يتميز بندرة الكلام، ولم يتنبه إليه إلا حين شاهده على باب غرفته فى تلك الليلة وفى هذه الغرفة التى سكنها بالطابق الثانى تبادل الرجلان الكثير من الشئون العامة وقد لفت نظر جورج واشنطن أن كلا الرجلين جون أدمز وابن عمه صمويل لم ينطق أي منهما بكلمة الحرية أو الاستقلال أثناء الحديث، وأدرك بحدسه أن الرجلان لا يرغبان بحال من الأحوال في الحرية أو غيرها من الكلمات والمفردات التحررية التى تدعو للاستقلال. . ولكنه كان واهما فى ظنونه التى ملكته. . وتملكت منه.

والواقع الذى لم يكن قد نما لعلم جورج واشنطن أن كلا الرجلين قد تلقيا تحذيرات وإنذرات شديدة اللهجة أثناء سفرهما إلى المؤتمر بواسطة إحدى العربات العامة، وقد تم التنبيه عليهما بضرورة توخى الحيطة والحذر والبعد عن السياسات التى تناصب الحاكم الانجليزى وأعوانه العداء، خاصة وأن فيلادلفيا تلك المدينة التى تمتلىء بأنصار الملك والموالين له، وربما تردد كلمة مثل الاستقلال كثيرا ستكون بمثابة صاعقة ستنزل من فورها على رؤوس هؤلاء الموالين للملك، ولهذا اختفت كلمات نارية مثل الاستقلال والحرية والانفصال وغيرها من المفردات التى من شأنها أن تشعل كرات اللهب فى نفوس الملك وأنصاره.

لقد اقتصر الأمر على تقديم عريضة إلى الملك جاء فيها أن رعاياه الذين يدينون له بالولاء والانتماء ويخلصون لتاجه يرجون من مليكهم الجليل الرحيم أن يوفر لهم سبل العدالة.

وبعد تقـديم هذه العريضة تفرقت بالمندوبين السـبل وعادوا جميـعا إلى بلادهم على العـودة مرة أخـرى فى شـهر مـايو حين يصلهم رد الملـك على ما جـاء فى عريضتهم.

وانقضى فصل الشتاء بأكمله دون أن يَرَوْ لهم أى جواب، ثم أقبل الربيع وتجلت براعته فى مـارس كما هو معتاد وتفـتحت الزهور وازدهرت براعم الكريز دون أن يأتى الرد الذى يتلهف عليه جورج واشنطن وغيره من أهالى فرجينيا.

وفى أحد الاجـتمـاعات المنعقـدة فى مدينة فـرجينيا وقف باتريـك هنرى قائلاً لجموع الحاضرين الذين ازدحمت بهم القاعة، وعلى رأسهم جورج واشنطن: «إننا ينبغى أن نناضل فى سـبيل اسـترداد حقوقنا، وإن كنت لا أعـرف كيفيـة التخطيط لذلك أو أن هناك غيـرنا قد خطط من أجل هذا الهدف المنشـود، ولكن أدعو هنا بأعلى صوتى أن امنحونى حريتى أو اتركونى للموت».

وجاءت تلك الكلمات بمثابة شموع أضـاءت طريق الشعب الفرجينى نحو الحرية والاستـقلال، خـاصة وأنهم قـد أدركوا أنه لا مـفر من القـتال وبدأت التـدريبات العسكرية تدور فى المنازل والمزارع، وبدأ التسليح يتوافد على فرجينيا استعداداً لخطة الانقضاض على المستعمر الغاشم الذى جثم على أنفاس البلاد والعباد.

وأمام هذا التحرك الشعبى الخطير كان جـورج فى طليعة هذه التحركات لا يهدأ من إشعال حـماس كل من يلتقى به، ولا يملأ النوم جفـونه إلا بعد أن ينهى خططه التسليحية والعـسكرية لساعة الصفر والحسم التى يتطلع إليها مـهما كان الثمن ولأن جورج واشنطن كان ساكنا فى قلوب أهالى فرجينيا وأحد أثريائها وشجعانها ورجالها ولتاريخـه فى الحروب مع فرنسـا التى أشرنا إليهـا فقد توافـدت على بيته الحـشود الغفيـرة التى تطالبه بأن يتولى هو قيادة الجـيش نظرا لخبراته وحكمته وذكائه ومـهابته وقدرته على قيادة فرجينيا نحو مستقبل أكثر إشراقًا وانطلاقا من قيودها وأغلالها.

ووافق جورج واشنطن على تلك الرغبة الشعبية وهو على يقين من قدرته على إدارة الأمور بما قد يؤدى إلى الوصول للأهداف المرجوة، ولجنى الثمار المنشودة من أجل تحرير شعب فرجينيا بل وباقى شعوب المستعمرات الإنجليزية القابعة على الأراضى الأمريكية.

وحين توجه جورج واشنطن إلى مدينة فيلادلفيا للمرة الثانية وذلك للمشاركة فى أعمال مجلس الكونجرس لم يكن موفدا إلى مقر المجلس بوصفه مزارع من مزارعى فرجينيا الذين أوفدتهم جماهيرها للتعبير عن أمالها وطموحاتها، بل أنه قد ذهب إلى هناك على اعتبار أنه أحد أبرز وألمع قادة الجيش فى فرجينيا وذلك بإظهار ملابسه العسكرية ذات اللون الأزرق والأصفر معا.

كان جورج بقامته الفارعة محط إعجاب وأنظار كل من تقع عليه عينيه فضلا عن هدوء أعصابه، وقلة حديثه وحكمة أرائه وسعة أفقه وابتسامته التى لا يبخل بها إذا ما دعا الأمر إليها، ودفء مشاعره لمن يقترب منه، ومن ثم كان جورج مألوفاً لدى الجميع ومضربا للآمال والأحلام.

وما أن اقترب جورج واشنطن من الثالثة والأربعين من العمر حتى بدأت مرحلة جديدة ومؤثرة وخطيرة فى حياته حيث بدأت تتجلى أوج عظمته وشموخه وزعامته وقيادته وحنكته وقدرته على تحريك الأمور كما ينبغى، وحيثما يريد وسط تأييد شعبى جارف وحب طاغٍ دفعه للعمل بكد وإخلاص على تدشين قواعد الحرية وإرساء أعمدة الاستقلال لهذا الوطن ولتلك الشعوب التى أضحت تستحقه، ومن الظلم أن تظل هائمة على وجوهها تحت سياط المستعمر الذى لا هم له سوى نهب خيرات البلاد وسلب كنوزها وفرض ضرائبه ووأد أحلام الأمة، واغتيال طموحاتها وكأن القدر قد كتب عليها أن تعيش ذليلة كسيرة تحت أقدام الملك وأعوانه.

كان جـورج يحلم بما لم يحلم به الآخرون ويـتطلع إلى ما لا تراه أعيـنهم كأنه مبعوث الحرية والاستقلال وقد كان جورج كذلك بالفعل.

* * * *

الفصل السادس
الجنرال.. جورج واشنطن

حين دخل جورج واشنطن مبنى الحكومة فى فيلادلفيا كانت ثيابه العسكرية المزركشة محط اهتمام جميع الذين شاهدوه وقد صاح جون آدمز قائلاً:

«ها هو الرجل الوحيد المتأهب للعمل والنضال»، كان جون أدمز من جانبه يسعى بكد وإخلاص إلى توحيد الصفوف من خلال كلمة موحدة يجمع عليها المندوبين فى أثناء انعقاد جلسات المؤتمر الثانى، وذلك لإبداء مدى جديتهم واستعدادهم لخوض غمار معارك وحروب جهادية لمكافحة هذا المستعمر، على غرار مندوبى ماساشوستس الذين جاءوا وقد عقدوا العزم على البدء فى النضال المسلح وإن زهقت أرواحهم جميعا فى سبيل الحرية وابتغاء الاستقلال المنشود..

لقد فات على البعض أن عجلات الحرب قد بدأت دورانها بالفعل منذ نحو اسبوعين، وبالتحديد فى إحدى ليالى شهر أبريل، حيث هب بول ريفير على ظهر جواده وقد أسرع به بسرعة خارقة لكى يلقى بإنذار شديد اللهجة على مسامع سكان بلدة كونكورد، كان يشير فى مجمله إلى أن «ذوى الملابس الحمراء»[1] على وشك دخول المدينة.

وفى صباح التاسع عشر من أبريل انطلقت الرصاصات من هنا لهناك وبالعكس بين الجنود الإنجليز ورجال ماساشوستس الصغار، وهو اللقب الشائع لدى أهالى هذه البلدة.

من هنا ومن أزقة وشوارع وبيوت ومداخل ومنافذ ونوافذ تلك البلدة اندلعت شرارة الحرب لتبدأ المعركة الأولى من معارك الثورة الأمريكية.

---

(١) الجنود الإنجليز.

لقد شــعر جــون أدمز بالغيــظ والاشمئــزاز حين لاحظ أن هناك من بين هؤلاء المندوبين الوافــدين لبحث التطورات والمســتجدات مــن يختلف على حــسم الأمر وخوض المعركة، وكــأن الأمر مازال يحتاج إلى تفكير ونقاش وجــدال وسجال وقد زاد من دهشتــه حيرة هؤلاء المندوبين وارتبــاكهم عند اتخاذ القــرار فى هذا الشأن وكاد الرجل يصرخ فى وجوههم قائلاً: لقد بدأت الحرب يا سادة، فهلاّ استيقظتم من سباتكم العميق؟!

ولأن الرجل لم يكن واسع الصدر أمام مثل هذه الأحــداث الملتهبة التى تتطلب سرعة الحسم وتحديد المصير، فقد خرج فى فناء دار الحكومة يوم الخامس عشر من يونيــو ١٧٧٥ ليستنــشق الهواء، وســرعان ما عــقد العــزم والنية على العــمل بكد واجتهاد.. وحين انــعقد الكونجرس هب واقفا وراح يلقى بكلمــة مقتضبة قــال فيها بالنص: «أنا أعــرض على الكونجرس أن يتــعهــد برعاية الجــيش الرابض فى ثكناته ببوسطن، وأن يتم تنصــيب قائدا عاما له، وأنا لا أعرف ســوى رجل واحد يصلح لمثل هذا المنصب الهام والخطير، ولا أظن أن هناك من هو أكــفأ منه فى شغل هذا المنصب.. أنه يا سادة ودون إطالة سيد من فرجينيــا وهو ذو جاه وثروة كبيرة، وقد منحه الله مواهب عــدة على رأسها القيادة فضــلاً عن أخلاقه السامية الرفــيعة التى تكسبه مزيداً من الوقار والمهابة رغم صغر سنه.. أنه بحق يملك الإرادة على تجميع شمل جــميع المستــعمرات، ويلملم حلقــاتها فى سلسلة واحدة لا تنقطع أكــثر مما يستطيع أن يصنعه أى شخص آخر فى الثلاث عشرة مستعمرة كلها».

وعقب هذه الكلمة الهــامة التى ألقاها جون أدمز راح جمــيع أعضاء الكونجرس يتناقشون فى كيفية تفعيل هذا الاقتراح الذى طرحه أحد الأعضاء البارزين..

وبعد مدوالات وجلسات عدة تم اختيار جورج واشنطن قائداً عاما بالاجماع، ثم أعقب ذلك أن قـرر الكونجرس من خلال رئيسه السيد جـون هانكوك تنصيب السيد جورج واشنطن قائداً عاما للجيش.

وفور سماع جورج واشنطن هذا القرار هب من مـقعده داخل قاعة الكونجرس قائلاً - وقد كـست على وجهه ملامح الحزن والضـيق -: «سيدى الرئيس.. إنى بالطبع أعلم مدى الشرف العظيـم الذى أوليتمونى إياه.. وأنا أعلن أمامكم جمـيعا مخلصا صـادقا كل ما فى نفسى من صدق وإخـلاص أننى لا أرى نفسى بالكفاءة التى تتطلعون إليها فى شخصى المتواضع للإمساك بدفة قيادة الجيش.

أما بخصوص الراتب فأنا فى غنى عنه؛ لأننى لا أحتاج إليه، وإنما سوف أسجل بدقة مـتناهية جميع المصـروفات والنفقات التى سـأحتاج إليهـا.. وهذا هو كل ما أردت أن أذكره أمامكم.

بعد انقضاء أسبوع من تلك الجلسة التاريخية التى رسخت أقدام جورج واشنطن ودفعتـه للأمام نحو ما هو أكـبر وأرقى، غادر القائد الجديد جـورج واشنطن مدينة بوسطن، وفى الثالث من شهر يولية عـام ١٧٧٥ وصل إلى مدينة كمبريدج بواسطة سفينة بحرية، وحين وقع بصره للوهلة الأولى على الجيش الغريب غير المؤهل أدرك أن أمامه مـهام صعبة وشـاقة تحتاج إلى وقت وجهـد لإعادة ترتيب وتكوين وإعداد جيش جديد يتمكن من الدفاع عن حدود بلدته ومقـاومة الغزاة مهما كانت قوتهم وأدواتهم.

كان الجيش مكون من رجال الغابات، وصبيـان الفلاحين، وقد كان جيشا يدعو للدهشة والعجب، الأمر الذى دفع بالقائد العام جورج واشنطن للاعتكاف فى مقره لوضع خطة عاجلة فاعلة والبدء فى تنفيذها على جناح السرعة.

* * * *

حرب الاستقلال

بعد أن مـر عام كامل على تولى جـورج واشنطن قيادة الجيش كانت الولايات المتحدة على موعد مع ولادة جديدة من رحم الكفاح الوطنى وذلك فى الرابع من شهر يوليو ١٧٧٦.

لقد أعلنت جميع المستعمرات تحررهـا من أغلال وقيود الإنجليز واستقلالها عن هذا التاج الأمبـراطورى الظالم وكتب جيفرسـون وثيقة إعلان الاستقـلال ثم وقعوا جميعا على هذا الإعلان، بيـد أن جورج واشنطن لم يوقع على الإعلان كما وقع عليه الآخرون، حيث كان منهمكا فى أعماله العسكرية بعيداً عن فيلادلفيا وبالذات يوم أن تُليت على الملأ بنود نص وثيقة الاستقلال..

لقـد كان جـورج مع جيـشه فى نيـويورك، وحين وصلته نـسخة من الإعـلان استـدعى أحد رجـاله وأمره فى التـو بتلاوة الإعـلان على الجنود حتى أشـعل به حماسـهم، وراح بعضهم يرقص طربا وغبطة من الأمل المنـشود والحلم الذى كان بعيـداً، ومن أنهم لن يكونوا بعد هذه الـلحظة من رعايا الملك جـورج الثالث، بل أسرع بعضهم نحو تمثاله الكائن فى حديقة الميدان لتـهشيمه وتحطيمه انتقاما وثأراً من العقـود التى مضت تحت وطأة الملك وأسرته. وبلغ بهـم الحماس أن كـسـروا تمثال الجواد الذى كان مصنوعا من الرصاص لصهـره حتى يتسنى لهم تحويله إلى ذخيرة حية لبنادقهم الفارغة.

لكن من جـانبه أبدى القـائد جـورج واشنطن رفضـه القـاطع لمثل هذا السلوك الفوضـوى والذى لا يستقـيم مع حياة الجندية التى تـتـسم بالضبط والربط فى كـافة نواحى الحياة، سواء كانت سعيـدة أو مؤلمة، حيث لا يرى القائد جورج أن هناك ما يبـرر الخروج على النظام العـام أو الأسس التى وضـعهـا عند بناء الجيش وتحـديد

أولوياته وأهدافه، وعلى رأسها الاحترام والالتزام والجدية، صحيح أنه أكثرهم فرحا بهذا الإعلان لكنه يملك بوصفه القائد القـدرة والإرادة الحديدية على ضبط مشاعره وعواطفه على عكس هؤلاء الجنود الذين كانوا يتوقون إلى مثل هذا الإعلان للتعبير عمـا حاق فى نفوسهم من ظلم واشـمئزاز من الملك ورجـاله، وعلى الفور بدأت حرب الاستقلال فى نفس العام الذى شهد خروج الوثيقة إلى النور عام ١٧٧٦ وقد استمرت زهاء ست سنوات، وقد كانت مدينة ماساشوستس هى البداية التى دفعت البلاد لخوض غمار معارك طويلة الأمد تنشـد الحرية وتحلم بالاستقرار، حتى كانت مدينة «يورك تاون» إحـدى مدن ولاية فرجينيا هى التى شـهدت بداية وقف إطلاق النار.

وعلى إثر هذه الحـرب الطويلة تدفقت دمـاء غزيرة، وتناثرت أشـلاء الجثث بين الفريقين، وإن كان أغلب ضحاياها من الجانب الأمريكى الذى كان أقل عدة وعتاداً إذا ما قورن بما يملكه الجيش الانجليزى الذى لم يتورع فى ارتكاب العديد من المذابح والمجازر والمآسـى فى صفوف الـشعب الأمريـكى الحالم بالحـرية ووحدة أراضـية الشاسعة.

وبعد وقف إطلاق النار الذى شهدته فرجينيا وتوقيع وثيقته حتى يلتزم بها الجانبان اندلعت النيران بين الجانبين مرة أخرى لتستمـر عامين أخرين كانت مشحونة بالمتاعب والمصاعب والمكائد، وقـد علا فيـها النحيب واخـتلطت بها دموع الثكلى باليـتامى والأرامل، حتى كـانت حربا مدمـرة أكلت أخضرها ويابسـها وشيوخـها وشبـابها ونساءهـا وأطفالهـا ورغم ذلك فقد كـان من بين هؤلاء الضـحايا من كـان يصرخ ويصيح: هيا إلى الاستقلال.. هيـا إلى الحرية.. تراجع لا استسلام.. لا تخذلوا الوطن.. لا تنكثوا العهـود أيها الأبطال الشجعـان.. اطردوا هؤلاء الغزاة الطامعين

فى نسـائكم وأولادكم وثرواتكم، حرروا أنفـسكم من أغلال الملك وتاجـه المرصع بذهبنا وكنوزنا وخيراتنا. .

كان جورج واشنطن فى تلك الأثناء لا يتسرب اليأس إليه، ولا يتردد فى خوض غمـار أية معركـة رغم ضعف إمكاناته وأسلحـته، حيث كـثيرا مـن شكا من نفاد الذخيـرة وقلة المدافع التى كان يحتـاج إلى الكثير منهـا، ولم يكن يمل الشكوى من تدنى الرواتب التى كـان يتقـاضاها الجنود، الأمـر الذى كان يثـير حـفيظـة جورج واشنطن خاصة وأنه يعلم أن خزانة الكونجرس كانت حصيلتها صفر.

ورغم ذلك فقـد كان الكونجرس لا يمل من طلب المسـتحيل من واشنطن غـير عابىء بإمكاناته المهتـرئة وموارده الشحيحة ومعنويات جنده الـتى كاد اليأس يعصف بها أمام احتياجاته الملحة والاستراتيجية.

وربما كان ذلك هو أحد أهم الدوافع التى أدت بالبعض للوشاية لدى الكونجرس بجورج واشنطن ومـحاولة تشويه صـورته وتلطيخ سمعـته والحط من شأنه وكـسر إرادته، ومن ثم تفرغ عدد كبـير من ضباط الجيش للتآمر عليه ومـحاولة إزاحته من قيادة الجيش، وعانى جورج كثيرا من خيانة أقرب معاونيه.

ورغم المكائد التى واجهها القائد جورج واشنطن فقد كان كعادته صبورا وصابرا ومثابراً ومتريثا أمام كل هذه التحديات الجسام طوال سنوات الحرب التى طال أمدها بأكثـر مما يتوقع الخـبراء، ومع ذلك ظل جورج وجنوده الأوفـياء على صـمودهم ونضالهـم وكفاحـهم واستـبسالـهم لا يبالون بما يجـرى من حولهم من مـؤامرات ودسائس، ولا يعبـأون بدعوات اليأس والانهزامـية التى روج لها دعاة الاستـعمار وأذنابه أملاً فى عودة الحكم الملكى الإنجليزى الذى كانوا يحصدون بعضا من ثماره على اعتبار أنهم من العمـلاء والخونة الذين لا يتورعون عن بيع الأوطان فى سوق النخاسة مقابل سنتا واحداً.

في نسـائكم وأولادكم وثرواتكم، حرروا أنفسكم من أغلال الملك وتاجه المرصع بذهبنا وكنوزنا وخيراتنا..

كان جورج واشنطن في تلك الأثناء لا يتسرب اليأس إليه، ولا يتردد في خوض غمـار أية معركـة رغم ضعف إمكاناته وأسلحـته، حيث كـثيرا مـن شكا من نفاد الذخيـرة وقلة المدافع التي كان يحتـاج إلى الكثير منهـا، ولم يكن يمل الشكوى من تدني الرواتب التي كـان يتقـاضاها الجنود، الأمـر الذي كان يثـير حـفيظـة جورج واشنطن خاصة وأنه يعلم أن خزانة الكونجرس كانت حصيلتها صفر.

ورغم ذلك فقـد كان الكونجرس لا يمل من طلب المسـتحيل من واشنطن غـير عابيء بإمكاناته المهتـرئة وموارده الشحيحة ومعنويات جنده الـتي كاد اليأس يعصف بها أمام احتياجاته الملحة والاستراتيجية.

وربما كان ذلك هو أحد أهم الدوافع التي أدت بالبعض للوشاية لدى الكونجرس بجورج واشنطن ومـحاولة تشويه صـورته وتلطيخ سمعـته والحط من شأنه وكـسر إرادته، ومن ثم تفرغ عدد كبـير من ضباط الجيش للتآمر عليه ومـحاولة إزاحته من قيادة الجيش، وعانى جورج كثيرا من خيانة أقرب معاونيه.

ورغم المكائد التي واجهها القائد جورج واشنطن فقد كان كعادته صبورا وصابرا ومثابراً ومتريثا أمام كل هذه التحديات الجسام طوال سنوات الحرب التي طال أمدها بأكثـر مما يتوقع الخـبراء، ومع ذلك ظل جورج وجنوده الأوفـياء على صـمودهم ونضالهـم وكفاحـهم واستـبسالـهم لا يبالون بما يجـرى من حولهم من مـؤامرات ودسائس، ولا يعبـأون بدعوات اليأس والانهزامـية التي روج لها دعاة الاستـعمار وأذنابه أملاً في عودة الحكم الملكي الإنجليزي الذي كانوا يحصدون بعضا من ثماره على اعتبار أنهم من العمـلاء والخونة الذين لا يتورعون عن بيع الأوطان في سوق النخاسة مقابل سنتا واحداً.

لقد وضعت الحرب أوزارها وها هو العام الأول قد أسرع وانتهى، وهاهم جنود الإنجليز قد تجمعوا أخيرا على رصيف ميناء بوسطن بعد أن قرر قادتهم الانسحاب أو الهروب من نيران المقاومة الأمريكية التى يقودها جورج واشنطن الذى كان يراقبهم بمنظاره وهم فى طريقهم إلى السفن البحرية التى أطلقت صفاراتها مؤذنة بالرحيل والعودة إلى بلادها الأصلية.

ووفقا للأوامر التى بلغت واشنطن من الكونجرس قام بنقل جيشه إلى مواقعه فى نيويورك لحماية المدينة وعدم وقوعها فى أيدى الإنجليز.. ولكن أدرك واشنطن أن هذه الأمنية هى درب من دروب الوهم والمستحيل. حيث أنه يفتقد السفن التى تعرقل دخول مراكب الإنجليز من دخول الميناء.

ولذلك اقتحمها الجنرال هاو بمراكبه وقواته التى كانت تفوق أعداد قوات الجنرال جورج واشنطن ومن ثم تمكن فى إبعادهم عن المدينة، بل وراح يتعقب فلولهم حتى نهر هدسون الأمر الذى دعاهم لعبور النهر هربا إلى نيوجيرسى، وفى نيويورك علم أن اللورد كرنواليس قد عاد من إنجلترا ومعه فرقة كبيرة من الجنود الألمان المرتزقة كان قد قام باستئجارهم ليقاتلوا معه فى صفوف قواته ومن ثم قام الجنرال هاو بإرسالهم لتعقب الأمريكين وظلت المطاردة أسبوعا بعد الآخر فى شوارع نيوجيرسى فيما كانت قوات واشنطن تتراجع وتتقهقر أمام الضربات الموجعة التى كانت تتلقاها.

ولأن جورج واشنطن كان يلوذ بالفرار من مكان لآخر على عجل دون تريث هربا من طلقات النار الكثيفة التى كانت تتساقط على قواته كالأمطار، كان يشكو من نفاد المؤن والماء، الأمر الذى أرغم بعض جنوده على الهرب من الميدان وانقلاب البعض الآخر على قيادته ،نظرا لسوء الأداء ونفاد السلاح والعتاد والمؤن والذخيرة والمدافع وملابس الشتاء..

وحين قرر واشنطن العودة بقـواته عبر نهر الديلاوير بالقرب مـن بنسلفانيا تملك الرعب أعضاء الكونجرس، وتوقع أعضاؤه أن يدخل كرنواليس على رأس قواته إلى مدخل نيويورك بين ساعة وأخرى.

كانت تلك الأحداث تدور رحاها فى شـهر سبتمبر، وكـان يتعذر على الإنجليز عبـور نهر الديلاوير؛ حيث كـان أغلبه قد تجـمد بفعل الأمطار الثلجـية مما اضطر كرنواليس إلى الوقوف وعدم العبور، واستـقر به المطاف عند مدينة ترنتون من جهة جرسى، ثم حل عـيد الميلاد وراح الجنود الألمان يحتـفلون بطقوسه على طريقـتهم الخاصـة، وتعاطوا كؤوس الخـمر التى لعبت برؤوسـهم مع رقصهـم العنيف على الأناشيد الوطنية التى استمرت حتى صباح اليوم التالى.

فى تلك الليلة عاد واشنطن عبر نهر الديلاويـر رغم أن مياهه قد تجمدت ومن ثم قرر عبـوره من ناحية نيوجـيرسى بواسطة مراكب صـغيرة وسط ضبـاب كثيف وثلوج أعمت الأبصـار عن الرؤية القريبة، ثم سـرعان ما اقـتربوا من الجنود الألمان المرتزقة الذين كـانوا قد استسلمـوا لسبات عـميق بعد أن أرهقهم السـهر والرقص والخمـر فأصبحـوا صيدا ثمينا لـقوات جورج واشنطن، الذى قام بإصـدار أوامره الصارمـة بالقاء القبض علـيهم كأسرى حـرب وبالفعل سـقط الجنود الألمان أسرى لقوات جورج واشنطن..

أما كرنواليس فقد وصل حيث ترابط قوات واشنطن، وظن كرنواليس أن الثعلب العجوز قد بات فـريسة سهلة فى شباكه، وأن هذه الليلة سوف تشهـد القضاء عليه حيا أو ميتا.

وراح يرسم خطة شديدة الإتقـان للقبض عليه عند بـزوغ خيوط الفجـر الوليد، ولكن ما أن قام كـرنواليس بتنفيذ خطتـه البارعة حتى علم من مصـادره أن الثعلب العجوز قد أطلق ساقه للريح هو وقواته فى حيلة عجيبة أدهشت كرنواليس.

كان كرنواليس يتمدد فى فراش خيمته طوال ساعات الليل المظلم الأمر الذى دفع جورج واشنطن لخداعه وتضليل حراسه وجواسيسه حيث أوقد نيران فى منتصف المعسكر بحجة تدفئة عظام الجند التى كاد يفترسها البرد القارس فأوهم كرنواليس بوجوده طوال الليل فى الوقت الذى تسلل من بين خطوط قوات كرنواليس. .

وعند طلوع الفجر كان هو وجنوده قد قطعوا مسافة كبيرة نحو جهة الشمال، وإذا بقوات الانجليز تواجه قوات جورج واشنطن ليلقى على أيديهم هزيمة قاسية فى منطقة برنستون وكانت هى خاتمة معارك الشتاء. . وعاد كرنواليس إلى نيويورك فيما اتجه واشنطن إلى نيوجرسى ليقضى فيها فترة الشتاء. .

فى تلك الأثناء جاءت زوجته مارثا من ماونت فرنون لتقف معه وتشد من أزره وانكبت على صناعة الجوارب للجنود، ثم غادرت المعسكر عند بداية فصل الصيف حيث أن اندلاع المعارك مرة أخرى كان هو الأمر المتوقع لدى جميع الأطراف.

صحيح أن واشنطن لم يكن على دراية بكيفية ومكان بدء المعارك مرة أخرى لكنه كان واثقا أنها سوف تنشب مرة أخرى. . ثم هو لا يملك من العملاء والجواسيس ما يمكنه من الوقوف على نوايا العدو المستقبلية لاتخاذ اللازم وإعداد التدابير وتوفير ما سوف تحتاجه المعارك القادمة، سواء كانت فى مدينة من جهة الشمال أو الجنوب أو أية جهة سوف تقتحمها قوات الإنجليز.

وعلى نحو مفاجىء أقبلت بعض طلائع الكشافة أو (جواسيس جورج) يخبروه أن الجنرال هاو اتجه بقواته نحو فيلادلفيا حيث أنه قد شوهد يشق عباب خليج تشابيك بواسطة السفن البريطانية، نزل النبأ على أعضاء الكونجرس كالصاعقة، حيث بحث كل عضو عن مأوى يحميه وطوق نجاة ينجيه من مغبة جنود (هاو).

ولأن جورج واشنطن قد أدرك خطورة ما أقدم عليه رجال الكونجرس من إزهاق الروح المعنوية لدى جنوده وما يمكن أن يترتب على ذلك من تدمير كامل لقواته تلك التى تستبسل فى الدفاع عن حرية أمريكا واستقلالها، قرر الرجل القائد المغوار أن ينشر جنوده فى شوارع المدينة وسط طبول الحرب وأناشيد الاستقلال لإرهاب العدو وأنصاره، خصوصا وأنه قد طالبهم بالوقوف أمام المبنى الذى شهد إعلان وثيقة الاستقلال كرمز للصمود والعناد والصلابة والإرادة والتحدى وعدم التراجع والتقهقر مهما أوتى العدو من قوة ومن رباط الخيل.

وأطاع الجنود الأوامر فى التو وأصبحت المدينة وكأنها تعيش مهرجانا لنصر لم يحرزه واشنطن بعد حيث راح الجنود يغنون بأصواتهم الصاخبة أغانى مشهورة باسم «يانكى دودل» وسط دقات الطبول ونغمات المزامير الحماسية المدوية، وقد وضعوا على قبعاتهم أغصان شجر لكى تخفى معالم السوء التى كانت قد بدت عليها من شدة الحاجة وسوء المنقلب، وبينما كان جنود واشنطن الثوار يهتفون فى شوارع المدينة بثيابهم الرثة ومظهرهم البائس كان المحافظون يتهكمون عليهم ويستخفون بهم، حيث كان أغلب هؤلاء الأمريكيين ما زالوا على ولائهم لملك الإنجليز، وكانوا يتطلعون إلى اللحظة أو الساعة التى تصلهم أنباء وصول الإنجليز إلى مدينتهم.

وبعد نشوب معركة أو أكثر استطاعوا دخولها فى مطلع شهر أكتوبر الذى شهد العديد من المهرجانات اليومية التى شاركت فيها أسر المحافظين مع جنود الإنجليز التى استمرت طوال فترة الشتاء حيث ساد المرح جميع أنحاء المدينة.

وعلى الرغم من المهرجانات التى أقامها الأهالى والجنود الغزاة معا كان جورج واشنطن وجنوده يتألمون من قسوة الشتاء، خاصة وأن مواقعهم كانت على التلال المكشوفة عند منطقة (فالى فورج) وقد استولى عليهم الجوع، وكادت جلودهم

تتجمد بفعل الشتاء القارص الذى داهم البلاد.. خاصة وأن أغلبهم كانوا من الحفاة حتى كانت أقدامهم تئن وتتوجع وتنزف دما غزيرا وهم يتنقلون من مكان إلى مكان يقطعون الأشجار ويصنعون من جذوعـها أكواخا لتكون ملاذا آمنا لهم من عصف الشتاء.

كـان واشنطن يقضى أوقـاته فى خـيمـة قريبـة من رجـاله حتى كـان يأكل من طعامهم، ويتـوجع بأوجاعهم مع أنه كان أكثر قـوة وصلابة وتحدٍ وعناد وإرادة من ضباط قواته الذين داهمهم اليأس، وكاد يعصف بحياتهم فضلاً عن ضعف جنوده واستـسلامهم للبكاء بين الحين والآخـر رغم العزيمة التى تسكنهم والرغـبة فى طرد الغزاة وتحرير الأوطان من هؤلاء الذين نهبوا خيراتها وأذلوا أهلها.

بعد أن أنجز الجنود أكـواخهم الخشبيـة التى انتقلوا إليها، شيـدوا لقائدهم جورج واشنطن بيتاً صغيراً مبنياً بالأحجار على مقربة من الخليج.

فى تلك الأثناء جاءت زوجتـه مارثا كما هو معتـاد لكى تعيش إلى جواره طوال فصل الشتاء، وكانت آنذاك تتـردد على الجنود وتواسى مرضاهم وتداوى جرحاهم وهى لا تهـدأ فى صنع جوارب الجنود المضـادة للبرد القـارص، وحياكـة الملابس وترقيعها مع زوجات الضباط الآخرين.

وقضى واشنطن هذا الشتـاء مسكونا بالحزن والهم والضيق، حـيث كان منقبض الصدر آسفا على ما لاقاه جنوده من أهوال ومتاعب ومصاعب جمة، ثم إزداد ألمه حين تلقى خطابات عديدة من أعضاء الكونجرس لا تخلو من النقد والتأنيب واللوم فى حين أن هؤلاء الأعضاء قد نفضوا أياديهم ولم يقدم أى منهم معونة أو مساعدة تعضد من موقف قـواته.. بل إنه واجه أكثر من مؤامرة نسج خـيوطها بعض قادة الجيش بهدف عزله وإقصائه من منصبه، بيد أنه اكتشف خيوط تلك المؤامرة ومن ثم قرر قطع دابرها والقضاء على أصحابها..

على أية حـال رغم الأذى الذى وقع على جورج ورجـاله إلا أنه تحلى بالصبر وتمسك بالشجاعة، الأمـر الذى ساعده بالطبع على المضى قدما فى تنفيـذ ما يصبو إليه.

ومع حلول الربيع جاءت أخبار طيبة، أخبـار رائعة وعظيمة، وفى أحد أيام شهر مايو كان المعـسكر يشهد احتفالات صـاخبة بغرض الترفـيه عن الجنود، وقد اندفع أحد الشباب فى غمرة من غمرات الطرب والابتهاج ليلقى بنفسه بين ذراعى جورج واشنطن يعانقـه ويقبله فى وجنتيه وكـان هذا الصاغ هو المركيز لافـاييت وهو شاب فرنسى لم يتجـاوز العشرين من عمـره. فماذا كان سبب ذلك الفـرح الكبير الذى ساد أرجاء المعسكر؟

لقد انضمـت فرنسا إلى الويات المتحـدة الأمريكية فى نضالهـا ضد الإنجليز.. وقام لويس الســادس عشر ملك فرنسا بتـوقيع معاهدة مع بنجـامين فرانكلين الذى ذهب إلى فرنسا لكى يسـتعين بها على الإنجليز، كان لافاييت قـد غادر فرنسا منذ سنة واحدة وجـاء إلى أمريكا ليـشتـرك معهـا فى كفـاحها فى سـبيل التـحرر من الإنجليز، وقد تسلل إلى الميناء متخفيا بأن وضع على رأسـه شعراً آخر مستعار كان أسود اللون حتى يخفى لون شعر رأسـه الأصلى ذو اللون الأحمر الطبيعى، حيث كان الملك قد أصـدر قراراً بمنعه من السفر إلى أمريكا.. لكن الآن فـقط تغير رأى الملك وأصبـحت فرنسا تحـرص على التعاون مـع الولايات المتحدة الأمـريكية فى حربها ضـد الإنجليز، وسوف تصل السفن الفـرنسية إلى السواحل الأمـريكية على الفور.

ما من شك أن هذه الأخـبار قد دفعت بالإنجليـز لتغييـر خططهم، ولذلك عاد الجنرال هاو إلى إنجلترا بعد أن سلم القيادة لجنرال آخر...

وحين نما لعلم القـائد الإنجليـزى تحـرك أسطول فرنسى نـحو نيـويورك رأى أن وجوده فى نيويورك أقل خطرا على الجنود الإنجليز من أن يكون فى فيلادلفيا ولهذا غادر فـيلادلفـيا ومن خلفه أسطول ضـخم من عربات البـضاعـة حتى وصل إلى نيويورك ووقف على بعـد نحو اثنى عشر مـيلا. . فتبعـه واشنطن ورابط بقواته فى موقع قـريب يتيـح له إمكانية مـراقبة الأوضـاع فى المدينة وترقب ومـتابعـة وصول الأسطول الفرنسى على أمل أن يقتحم نيويورك ويستردها بدعم الفرنسيين.

ولكن. . لسوء الطالع فقد وصلت السفن الفرنسـية فى مطلع شهر يوليو وبالتالى عجزت عن دخول المياه حيث الميناء يفتقد العمق فى مثل هذا الوقت من السنة ومن ثم تفشل السفن الضخمة فى دخوله بسـبب إرتطامها بالرمال ولهذا ظل الإنجليز فى نيويورك فـيما بقى جورج واشنطن وجنوده على أهبـة الاستعداد على مـقربة منهم حتى نهاية الحرب.

فى تلك الأثناء تحـولت المعـارك إلى الولايات الجنوبيـة الأربع ففى عـام ١٧٨٠ احتل الإنجليز مـدينة جورجيا ثم أعقبـها سقوط كارولينا الجنوبيـة التى احتلها اللورد كرنواليس، وكان قد تحرك إلى كارولينا الشمالية ثم توجه بعدها مباشرة إلى فرجينيا، وتلك أخبار من شأنها أن تعكر صفو واشنطن وتثير غضبه.

لكن بالرغم من الضربات التى يتلقاها جورج واشنـطن يوما بعد الآخر والهزائم المتكررة لقواته والبؤس والعـوز والفقر الذى كاد يقتل ما نبـقى معه من جنود، رغم ذلك كله فقد وصلته أنباء سارة على رأسهـا وصول القوات الفرنسية لأمريكا ونزلت بنيوبورت فى رود آيلاند، وعلى الفـور رافق جورج واشنطن لافاييت وترجـلا معا من أجل التبـاحث وتبادل الآراء مع القائد الفرنسى الذى كـان طاعنا فى السن حتى كان جنوده ينادونه بلقب «بابا روشامبو».

كان واشنطن من جانبه يتطلع إلى مهـاجمة القائد الإنجليزى فى نيويورك، ولكن رجاحة عـقله وحكمته وذكاء بصيـرته كانوا حجر عثـرة للإقدام على ذلك لما لهذه المخاطرة من خسائر فادحة كانـت قواته ستتكبدها منذ اللحظة الأولى، ومن ثم قرر جورج واشنطن انتظار وصول الأسطول الفـرنسى، ومن ثم يتمكن فى تلك اللحظة أن يدفع بقواته تحت الستار الفرنسى، ولكن كانت الأساطيل الفرنسية لا يزال بعضها فى عرض البحر يصارع الأمواج ويسرع الخطى للوصول إلى مرفأ الأمان.

وفى أوائل العام الجديد ١٧٨١ أخبر توماس جيفرسون القائد جورج واشنطن أن الجنود الإنجليـز دخلوا ولاية فرجـينيـا وقد أضـرموا النيـران فى مزراع التـبغ وفى المحلات ويرتكبـون أحمق الجرائم نكاية فى جـورج واشنطن ابن تلك الولاية وأبرز رجالها على الإطلاق.

وفى التو كلف جورج واشـنطن لافاييت بالتوجه ناحيـة الجنوب فى الحال وبعث معه كل من يستطيع الاستغناء عن دوره من الجنود، ولكن سرعان ما وردت الأنباء إلى واشنطن تؤكد أن القائد كرنواليس اتجه بنفسه إلى فرجينيا ورأى واشنطن أن عليه انتظار الأخبار الواردة من لافاييت.

وبالفعل بعث لافاييت بالأخبار فى الخريف يطالبـه بضرورة الحضور سريعا حيث أن الأسطول الفرنـسى وصل لتوه خليج تشـسابيك وأن القوات الأمـريكية البـسيطة المرابطة هناك قد أحكمت حصارها على كرنواليس وجنوده فى (يورك تاون).

وحين سمع واشنطن هذه الأنباء السارة أسرع هو وروشـامبو وتوجها على الفور نحو الجنوب.. كان الجنود الأمـريكيون لا يزالون فى ثيابهم الرثة فيـما كان الجنود الفرنسيون فى ثيابهم الـبراقة المزركشة الجذابة.. ودخلوا مدينتى فيلادلفـيا وبلتيمور وعبروا نهـر البوتوماك إلى فرجينيـا وذات ليلة فى ساعة متأخـرة فى ماونت فرنون تسلل جورج واشنطن إلى أسرته التى استيقظت من نومهـا لتجده أمامها وفى صباح

اليوم التـالى أقبل بابا روشـامبو الذى قـوبل بحفاوة من قـبل أسرة جورج وجـميع جيران بيته، ولكن سرعان ما رحل الرجلان لمتابعة تطورات الموقف العسكرى.

وقد اصطحب جورج واشنطن كوستيس ابن زوجـته مارثا ليعمل ياورا له، وكان جاكى قد قـام بتوديع بناته الصغار وطفـله الوليد وداعا كان هو الأخيـر؛ حيث لقى مصرعه فى ميدان المعركة.

وفى ويليامـز برج على بعد نحو أكـثر من سبـعة أميـال من (يورك تاون) وجد واشنطن لافـاييت ينتظره، وحين رأى هذا القائـد المحبوب حـتى انفرجت أسـاريره وأشرق وجهه وبرقت عيناه ولاحت على شفتيه ابتسامة رقيقة ساحرة.

وفى صباح يوم التـاسع من أكتوبر عام ١٧٨١ أطلق جـورج واشنطن أول قذيفة مدفعـية على مدينة (يورك تاون) لفك الحـصار الإنجليزى على أسوارها ومـداخلها وقد شهـدت المدينة أعنف قصف مدفعى طوال عـشرة أيام لم تتوقف فيـها مدافع واشنطن من الضرب المـتواصل حتى أن سـحب الدخان قد سـادت أجواء، المدينة ولم يتوقف جـورج عن القصف حتى أبدى القـائد الإنجليزى كرنواليس رغبـته فى الاستـسلام هو وجنوده لإنهاء هذا القـصف العنيف الذى أبلى فيه جـورج ورجاله بلاء حسنا.

وفى الساعة الثـانية مساءً فى ٢٠ أكتوبر ١٧٨١ خـرج الإنجليز من مدينة (يورك تاون) بثيابهم الحمراء وموسيقاهم النحاسية تعزف نشيد الهزيمة: «انقلبت الدنيا رأسا على عقب».

وساروا بين صفوف متوازية من الجنود الأمريكيين والفرنسيين الذين وقفوا جميعا وقـد خيم الصـمت عليـهم من فـرط الاحـترام لجـورج واشنطن، ثم بعـد تلك اللحظات ألقى الإنجليز بأسلحتهم على الأرض.

فى اليوم التالى لاستسلامهم توجه كرنواليس إلى الجنرال واشنطن وقدم إليه فروض الاحترام، وبعد قليل كان كرنواليس على مأدبة غذاء دعا إليها جورج واشنطن الذى أمر بإعدادها على مستوى يليق ومكانة قادة الجيوش الثلاثة.

أما جاكى كوستيس فقد داهمه المرض فى ويليامز برج وقد انتقلت إليه زوجته ووالدته من ماونت فرنون لمباشرة حالته الصحية والجلوس بجواره ومحاولة البحث عن دواء لمداواته والنهوض به من وعكته التى ألمت به مؤخرا. .

وقبل أن تزهق روحه ويتوقف نبض قلبه أبدى مخاوفه على مصير ابنته الطفلة الصغيرة نيللى التى لم تكن قد جاوزت الثالثة من عمرها وكذلك ابنه الصغير الذى أطلق عليه جورج واشنطن، وقد تعهد واشنطن أمامه بأنه سوف يرعى أبناءه رعاية تامة، وأنه سوف يتبنى ابنته نيللى، ورجاه واشنطن ألا يشعر بالقلق نحو أطفاله سواء كان على قيد الحياة أو فارقها.

* * * *

على الجانب الآخر وبعد أن استسلمت قوات كرنواليس ظن الناس أن الحرب قد أرخت ستائرها، وذلك بعد أن يوقع وزراء جورج الثالث على معاهدة الصلح. . ومن ثم كان على الجيش الأمريكي أن يظل متماسكا قويا مترابطا مثل أى جيش حقق انتصارا، ولكن جورج واشنطن الذى كان على علم أن جنوده قد نفد منهم الصبر ولم يعد بمقدور أى أحد منهم أن يتحلى بالصبر والتريث، ولأنهم لم يتقاضوا أجورهم، وأن أعضاء الكونجرس لا يعبأون بمشكلاتهم رغم أهمية دورهم وعظمته فى تحرير الوطن واستقلال أراضيه فقد قرر الجنود إما أن يتم تسريحهم من الجيش والعودة إلى الحياة المدنية للعمل والتماس الرزق، وإما أن يقوم قائدهم العبقرى جورج واشنطن بتولى زمام أمور الدولة والانقلاب على حكامها الذين أداروا ظهورهم للجيش، ولم يكن أمامهم سوى التهام الكعكة بمفردهم وليذهب الجيش إلى الجحيم.

نعم لقد تجرأ الجنود وطالبوه بأن ينصب نفسه ملكا على البلاد، حيث أنه أجدى وأحق من أى أحـد من هؤلاء المحافظين الموالين لـلإنجليز فـهو الذى ضـحى بكل أعـماله وأمـلاكه وأسـرته وحـياته من أجل عـودة البـلاد إلى أهلها وطرد الغـزاة الإنجليز، ولكن كـان هذا الاقتراح الشجـاع قد نزل على جورج نزول الصـاعقة، حتى أنه ناشـد جنوده بعدم اللجوء إلى مثل هذا التـصرف، فمن واجبـهم احترام الحكومة والكونجرس،ولا ينبغى الخروج على أى منهم احتراما لقوانين البلاد.

بعد توقـيع معاهدة الصلح عام ١٧٨٣، وبعـد أن وصلت أبناؤه إلى أمريكا وتم إعلانه على الجميع، تم تسريح الجنود بعد أن غادروا البلاد بصفة نهائية.

وفى مساء الرابع من شهر ديسمبـر التقى جورج واشنطن بمقهى فرنسيس بمدينة نيويورك مع جنوده وضـباط جيشـه لمصافحتـهم وتوديعهم، ولكن فى تلك الأثناء اغرورقت عيناه بالدموع حيث كانت اللحظة مفعمة بالأحاسيس والمشاعر والعواطف والذكريات والصور المؤلمة والكسيرة والكئيـبة، وها هو الفراق قد ألقى بظلاله الثقيلة عليهم، ولكن جورج حاول أن يبـدو متماسكا كما هو معتـاد وراح يحدث الحشد الغفير من جنوده قائلاً:

«بقلب زاخـر بالشكر عامـر بالحب دعونى أسـتأذنكم وأرجـو أن تكون أيامكم القادمة سعيدة ناجحة بقدر ما كـانت الأيام السابقة مؤلمة، وإن كانت مجيدة وشريفة وعظيمة».

ثم راح يطلب منهم جميـعا مصافحتـهم يداً بيد دون أن ينبس أى جندى بكلمة حيث كان الصـمت قد ساد المكان والحزن رفرف عليه بـأجنحته من تلك اللحظات المؤثرة.

وبعد أن فرغ جورج واشنطن من مصافحة قـواته جميعا ظلت أبصارهم تلاحقه وتشيعه حتى استقل سفينته الراسية أمامهم..

وحين أقلعت، التفت إليهم والدموع تنهمر وهم يلوحون له بأيديهم ودموعهم التى كانت أكثر غزارة وسخونة.

لقد نالوا الاستقلال.

وأينما توجه جورج واشنطن كانت الجماهير تستقبله بحفاوة بالغة بوصفه بطل الاستقلال، وكم من مآدب أقيمت تكريما له وترحيبا بقدومه السعيد إليهم.

وفى أثناء وجوده فى فيلادلفيا قدم لوزير المالية حسابا دقيقا يتسم بالصدق والشفافية عما أنفقه أثناء الحرب، ثم خرج متوجها من فيلادلفيا إلى أنابوليس وهى فى ولاية ميرلاند فقد كان الكونجرس منعقداً، ومن ثم تقدم باستقالته من قيادة الجيوش.

وفى ليلة عيد الميلاد شوهد جورج واشنطن مستقلاً عربة وبجواره زوجته مارثا.. وكانت هذه السيارة تتهادى بهما نحو منزله.

وعاد جورج واشنطن إلى مزرعته الحبيبة وبيته العزيز على نفسه بعد طول عذاب وكفاح ونضال وعناء وجهاد ومشقة وشقاء وبؤس وحصار وكر وفر واقتحام واستسلام، عاد جورج إلى موطنه إلى حياته فى ماونت فرنون.

* * * *

نيللى

بعد عودة جـورج واشنطن إلى بيته في ماونت فرنون بدأ على الفـور الاستعداد للإحتفـال بعيد الميلاد والعام الجـديد الذى سوف يأتى بالخير والرفاهيـة على جميع أبناء الشعب الأمريكى بعد أن تحرر وطنهم العزيز.

وامتلأ البـيت بالنبات والخضرة والأشجـار حيث أن جورج واشنطن لم يعلم أن الطفلة نيللى التى كانت بمثابة حفيدته والتى تعهد برعـايتها قد استعدت لقدوم جدها السعيد وتولت مع الخدم تزيين المنزل خاصة وأن الضيوف سوف يترددون عليه طوال ساعات النهار حال عودة الجد البطل.

كانت تقف فى شرفة المنـزل قبل وصول جدها تنتظر لحظة مجيئـه تتمنى أن تقبله وتحتضنه وتعـبث فى سترته كأى طفل، وأن تنام على يـديه وأن يروى لها الحواديت التى تجلب النوم.. وها هو الليل قد أسدل سـدوله دون أن يأتى الجد والجدة رغم أنها ترتدى أفـخر وأحلى الثياب وقـد قامت بتصـفيف شعرها وزينتـه بالورود وكان حذاؤها يلمع كأحذية الضـباط الفرنسيين الذين كانوا قد ترددوا على بيتـهم بصحبة جدها جـورج واشنطن، ولكن حـتى بعد أن جاء جـورج واشنطن ظل الضـيوف الذين يتوافدون على البيت طوال النهار يحولون بينها وبينه، ولم يعد بمقدورها رؤيته عن قرب أو الجلوس على ساقـيه وتقبيله كما كـانت تنتظر، فقد ظلت تنتظره طوال الليل حتى غـلبها النوم وتمكن منهـا لتستـيقظ على ضـحكات وتحيات وسـلامات الضيوف وبالـفعل ظلت على هذا الحال، فالناس لا تتـوقف عن زيارة البطل العائد وهو بالطبع لا يعـد مـثل أى بطل، فـهـو فى أعين أبناء الشـعب بطل الأمـة بطل التحرير، بطل الحـرية بطل الاستقلال، وهو يستـحق كل هذه الألقاب عن جدارة وبدون أية مجاملة .

وبعد عدة أيام بدأت أعـداد الوفود تقل شيئا فـشيئا حتى اندثرت تمامـا لتختلى نيللى بجدها أو بمن هو فى مكانة جدها وأنه لجد عظيم.

واصطحبهـا فى الصباح لاستشراف مـزارعه وبالقرب من مقر بيـته وقف يشرح لنيللى الطفلة الصغيرة كـيف سيبنى لها ولأشقائها بيـوتا جميلة هنا، والحدائق الغناء من حولها، ثم راح يشرح لها كيفيـة زراعة الأشجار وبعض المحاصيل الأخرى وقد بلغ آنذاك أوج سعادته رغم إلحاح زوجتـه مارثا فى إبعاد نيللى عن جدها، حتى لا تضايقه ويستطيع أن يتفرغ لشئون مزرعته بعد عودته سالما.

* * * *

فخامة الرئيس

حين سمع جورج واشنطن عبارة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية اضطرب قلبه وزادت نبضاته فرحـا وابتهاجا، حيث كانت تلك اللحظة التاريخيـة فى حياة جورج واشنطن كانت فى الرابع عشر من أبريل عـام ١٧٨٩، وهو واقف فى غرفة الطعام بما ونت فرنون.

وبعد أن عـاد من ممارسة رياضـة الصباح على ظهـر جواده داخل المزرعـة كان جمـيع أفراد الأسرة قـد أحاطوا به من كل جـانب، حيث كان رسـول الكونجرس الأمريكى الذى أقبل على بيته منذ قليل قد أخبر أسرته بالنبأ السار، فقد وقع اختيار الكونجرس عليه كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية بعد انتخابه بالإجماع.

أوه يا لها من مهمة شاقة وعسيرة وخطيرة، لقد مرت الأسابيع تلو الأسابيع وهو يخشى قدوم تلك اللحظة وسماع مثل هذا الخبر، وإن كان قد تطلع إلى ذلك أملا فى تحسين أوضـاع الشعب وتطويره وتحـديثه ومـحاولة الارتقاء بـه بين الأمم، حتى يكون له شأن عظيم، ولا يظل لقمة سائغة فى أفواه الغزاة الطامعين الذين يتربصون بلحظة ضعف يتـسللون خلالها إليـه مرة أخرى لسلب مـا أنعم الله عليه من كنوز ومن خيرات لا نظير لها فى الكون.

إن هذه المرة الأولى التى ستشهـد البلاد رئيسا لها، وهى تجربة مـرعبة حيث أنه إذا كان قد اعـتاد على أن يتعلم ممن سبـقوه فى الخبرات والتـجارب فمن هو الذى سوف يرشـده إلى الطريق السليم إذا كان هذا الأمـر هو الأول من نوعه فى تاريخ البلاد؟ ومن ثم لن يكون هناك من سوف يرشده إلى حيث يريد.

إن المهمة جد خطيرة ولكنه جورج واشنطن الذى يتصف بسمات ومزايا عدة قلما تشهد لها أمريكا مثيلاً فى أى رجل من بعده. . فهو الشجاع المقدام الكريم النبيل المخلص الذى وهب وطنه كل حياته من أجل رفعته وسلامته، فمن غيره يستطيع أن يتحمل عبء هذه المسئولية العسيرة ؟

لقد تخلى وجهاء البلاد وأعضاء الكونجرس وأعضاء الحكومة عن نهضة وتحرير ترابهم، ولم يكتفِ أى منهم بالوقوف السلبى - وقد تشابكت أصابعهم كأنهم اتحدوا على رفض ما أقدم عليه جورج واشنطن - لكنهم فى الواقع اتفقوا على موالاة الإنجليز حين كانت اللغة العسكرية ترجح فى أغلب المعارك لصالحهم، ومن ثم راح هؤلاء يظهرون موالاتهم للإنجليز طمعا وخوفا، ورفضهم لجورج واشنطن على أمل أن يسلم سلاحه ويعزل نفسه ويصدر قراراً بتسريح جنوده، ولتبقى الأمور على ما هى عليه وليحيا الملك جورج الثالث ويحفظه الله للبلاد والمستعمرات.

إذن لم يكن هناك من يستحق مثل هذا المنصب الرفيع سوى القائد الصنديد جورج واشنطن.

كان جورج حريصاً على لملمة شمل المستعمرات التى حالت بينها الحروب والاستعمار. وكان يرى أهمية توحيد كل هذه المستعمرات بدلا من أن تعيش كل واحدة بعيدة عن الأخرى،حيث رأى واشنطن أن توحيدها يضاعف من قوة البلاد ويحمى سلامتها.

كان مندوبو المستعمرات قد قرروا الاجتماع مرة أخرى فى فيلادلفيا فى مايو ١٨٨٧ للتباحث فيما انجزوه طيلة الفترة الماضية، وكيفية توحيد الصفوف ودمج المستعمرات تحت لواء واحد ليكون الاتحاد أثبت دعائم وأكمل نظام.

وفي خلال الاجتماع الذى ظل طيلة أربعة شـهور على التوالى حتى يتمكنوا من الوصول إلى صيغة ملائمة للاتحاد المزمع قيامه لتصبح النظم والقواعد التى وضعوها خلال المؤتمر دستوراً جديداً للولايات المتحدة الأمريكية.

وفي منتصف يناير ١٧٨٩ وقع اختيار الشعب على الناخبين، ثم اختار النواب الذين اختارهم الشعب رئيس الولايات المتحدة، ثم أعقب ذلك اجتماع الكونجرس فى مطلع شهر مارس فى نفس العام فى مدينة نيويورك وقد غادر جورج واشنطن الرئيس الجديد بيته فى شهر إبريل متوجها إلى المقر الرئاسى الجديد.

كان الرئيس جورج واشنطن قد أبدى رغبته فى أن يكون استقباله بسيطا دون تكلف توفيرا للنفقات؛ حيث أن البلاد فى حاجة إلى أية أموال لتدبير أحوالها بعد السنوات العجاف التى مرت تحت أصوات المدافع، وما خربته من دمار وحرائق وخراب، لكن رغم ذلك فقد أعد الكونجرس استقبالا رائعا يليق بأول رئيس للبلاد حيث قامت لجنة خاصة تحركت لاستقباله فى نيوجرسى عبر الميناء.

ثم تقوم إحدى السفن العملاقة المزدانة بالأعلام التى كانت ترفرف فى الهواء الطلق مستبشرة بقدوم البطل ويقودها نحو ثلاثة عشر قبطانا من البحارة البارعين وقد ارتدوا جميعا ثيابهم البحرية البيضاء لتقله من خلال الميناء إلى طرف وول ستريت.

كانت المدينة قد زينت بالأعلام وأقواس النصر من الزهور والورود فيما خرجت الجماهير عن بكرة أبيها لاستقبال رئيس البلاد الأول فى تاريخها.

كانت الفرق الموسيقية تعزف الأناشيد الوطنية والحماسية والمدافع تطلق طلقاتها ابتهاجا بقدومه..

أما طقوس حفل تقليده للرياسة فقد تم تأجيلها حتى يفرغ أعضاء الكونجرس من مناقشة الآليات التى ينبغى بها مخاطبة السيد الرئيس حتى تحفظ له مكانته وهيبته.. وراح البعض يتساءل: هل يخاطب بلقب صاحب الجلالة الملكية؟ ولكن هذه مخاطبة البلدان الملكية لحكامهم من الملوك، وجورج واشنطن يشغل منصب رئيس جمهورية وشتان بين هذا وذاك.

هل نخاطبه بعبارة صاحب السمو الأفخم؟ أم صاحب العظمة السامية؟ أم صاحب المكانة الرفيعة؟ كل هذه الاقتراحات كانت تدور فى أروقة وقاعات الكونجرس طوال ساعات دون التوصل إلى صيغة ملائمة وسط خلافات حادة بين الأعضاء حتى نهض السير جيمس ماديسون الذى كان أحد أعضاء لجنة وضع الدستور قائلاً: «ينبغى أن يقتصر الأمر على عبارة السيد الرئيس فقط».

وعلق جون أدمز: هذا فى سمعى أشبه ما يكون بأنه رئيس لعربة اطفاء الحرائق، وكان جون أدمز يشغل منصب وكيل الكونجرس.

بعد ذلك تقرر أن يحلف الرئيس اليمين فى الثلاثين من أبريل بعد الظهر من خلال الشرفة التى كانت خارج قاعة مجلس الشيوخ.

فى هذا اليوم احتشدت جموع الناس فى الشوارع والميادين وحين ظهر لهم جورج واشنطن بدا لهم ضعيفا مريضا حيث كانوا يطالبونه بأقصى ما يستطيع بل وما يفوق طاقته.

وسرعان ما استطاع أن يستجمع قواه مرة أخرى وتقدم بضع خطوات وراح يضع يديه على الكتاب المقدس، وحلف اليمين قائلاً: «أقسم أن أؤدى عمل رئيس الولايات المتحدة بكل أمانة وإخلاص، وألا أدخر وسعا فى أن أحافظ على دستور الولايات المتحدة وأصونه وأدافع عنه».

وبعدها وهتفت جموع الشعب: «بارك الله جورج واشنطن . . عاش رئيسا»!

انتقلت أسرة جـورج واشنطن إلى مقر الرئاسة الجـديد فى نيويورك، تلك المدينة التى يسكنها نحو ثلاثين ألفا من السكان، وأقامت زوجـة واشنطن أول حفل استقبال لزوجات الساسة وأعـضاء الكونجرس ونسوة المدينة ووجهاء القوم، حـتى أن الحفيدة نيللى قد لفت انتباهـها الحلى والزينة والثياب الفاخرة والاكسـسورات التى كانت قد تزينت بها وجوه النساء.

أما جدها جورج واشنطن فـقد قرر أن يحدد يوم حفل الاستقـبال للرجال فقط وقد حدده يوم الثلاثاء وكان يرتدى خلاله ثياب فاخرة بدا بها جميلا جذابا لمن يراه حتى قيل إنه خلق لكى يكون رئيسا للبلاد.

* * * *

واشنطن العاصمة الجديدة

كان المسّاحون يعملون ذات يوم من أيام شهر يونيه فى بضع حقول وغابات عبر نهر البوتوماك من جهة الأسكندرية، وكان جورج واشنطن مع شخص آخر كان يصغره سنا يراقبانهم من حقل التبغ القديم القائم على ربوة عالية.

وكان الجو رائعا وجميلا حيث السماء صافيه والسحب البيضاء سابحة.

ففى مثل هذا اليوم بالذات كان جورج واشنطن منذ اثنين وأربعين عاما يعمل مجرد مساح صغير فى مدينة الاسكندرية، ولكن ها هو قد أصبح فى التاسعة والخمسين من العمر رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية.

لقد وقع اختيار واشنطن على هذه المنطقة التى تقع وراء نهر البوتوماك القريب لقلبه لتكون مقرا للدولة الجديدة الوليدة، وعلى ظهرها شرعوا فى بناء عاصمة جديدة.

أما زميله الذى كان يعمل مساحا معه ويصغره فى السن فقد أصبح أشهر مهندس للتصميمات، حيث كان المسئول عن تصميم العاصمة والتقيا معا - جورج وزميله - فى المساء لوضع تصورات واقتراحات وأفكار تتعلق بالمدينة المزمع قيامها.

واتفق الرجلان على أن يكون مبنى الكونجرس مشيداً على قمة الربوة.. على أن يكون مركزا بحيث تتشعب منه العديد من الشوارع الواسعة.

لقد قرر أعضاء الكونجرس أن يكون لهم مبنى خاص بهم، ومقر دائم بدلا من التنقل من هنا لهناك كل عام، وهو ما يؤدى إلى إشاعة جو من التوتر والفوضى فى صفوف الأعضاء على عكس أن يكون لهم مقراً ثابتا ودائما.

وبدأت مناقشات الأعضاء حول: أين يكون مقر مجلسهم الجديد؟ حتى منحتهم مدينة ميرلاند بعض أراضيها التى خصصتها لهذا الغرض، فيما اشترى البعض الآخر من أصحابه الذين غالوا فى تثمين أراضيهم الأمر الذى دفع واشنطن إلى الذهاب إليهم لمناقشتهم فى كيفية تخفيض أسعار هذه الأراضى التى ارتفع ثمنها إلى رقم فلكى لم يكن أحد يحلم به أو يتصور حدوثه مستقبلاً على هذا النحو السريع، وقد بادر جورج واشنطن بالقول لأحد هؤلاء الملاك وكان من اسكتلندا:

لا تنسى أنه لولا الدولة الاتحادية ما كنت تستطيع أن تبيع أراضيك على وجه الإطلاق.. بل وكنت ستظل على حالك مجرد إنسان فقير معدم لا يملك سنتا واحداً.

فرد عليه المستر برنز ذاك الاسكتلندى العنيد قائلاً:

لولا أنك لم تتزوج من أرملة كوستيس التى تشتهر بالثراء الواسع لبقيت أنت أيضا مجرد مساح أراضى بل مساحا فقيرا ومعدما.

ورغم حدة النقاش والتراشق العنيف فقد اضطر مستر برنز إلى الرضوخ والامتثال لرغبة جورج واشنطن تقديرا لدوره العظيم فى تحرير الوطن واستقلاله.

كان برنز يملك قطعة الأرض التى اختارها الرئيس لتكون قصرا دائما للرئاسة، ومن ثم تراجع باقى الملاك وقاموا بتخفيض أسعارهم.

ثم سرعان ما تولى المساحون تطهير قطعة أرض كانت حول المنطقة كلها تبلغ نحو عشرة أميال مربعة. وشيدوا فيها معالم حجرية بين كل معلم وآخر ميل واحد لتؤكد للناس أنها ضمن أملاك الولايات المتحدة الأمريكية كلها.

وكان المقصود بذلك هو أقليم كولومبيا كما أطلق عليه توماس جيفرسون وماديسون وغيرهما من أعضاء اللجنة التى تولت مهام شرائها، وهم الذين أطلقوا على المدينة التى ظلت أعمال البناء بها نحو عشر سنوات اسم «واشنطن»، بيد أن واشنطن نفسه لم يكن يستخدم هذا الاسم إطلاقا، بل كان يردد أمام الجميع فى تواضع جم اسم المدينة الاتحادية.

الرئيس يقدس السلام

كانت الولاية الأولى التى ظلت نحو أربعة أعوام هادئة فـضلا عن أن مدته الثانية التى فاز بها بأعلى الأصـوات قد تعرض خلالها لأقاويل وافتـراءات عديدة أهمها جهله التام بشئون أعمال الرئاسة، وأنه حاقد وناكر للمعروف، وأنه من البلهاء الذين أنصفهم الحظ، ولولا الأرملة الثرية التى تزوجهـا ما كان له شأن أو مكانة، بل كان سيقضى بقية عمره مسّاحا كـبر أو صغر. . ثم بلغت الاتهامات ذروتها حين زعموا أنه إنسان خائن!!!

لهذا الحـد بلغت الاتهـامات التى طالت جـورج واشنطن، ولكن لماذا كل هذه الافتراءات؟!

ببساطة لأنه رفض أن يعلن الحرب.

كان ذلك أثناء فترة اندلاع الثـورة الفرنسية الكبرى، حيث أقـدم الفرنسيون على قتل الملك لويس السادس عشر، وكـادوا أن يقتلوا زوجته الملكة مارى انطوانيت لولا أنهـا هربت إلى النمسـا لالتمـاس الحمـاية من والدها امبـراطور النمسـا فى ذلك الوقت. .

لقد نجح الثـوار فى التخلص من الحكومـة الملكية واستـبدلوها بالجمـهورية تحت شعـار الحرية والإخـاء والمسـاواة، ومن ثم قذفـوا الرعب فى قلوب ملوك وأباطرة أوروبا الأمر الذى دفع جـميع البلدان الأوروبيـة لمناصبة فـرنسا العـداء والكراهية، وكان فى طليعة تلك البلدان إنجلترا بالطبع.

وراح الناس فى فرنسـا يمتلأون غيظاً من مـلوك أوروبا الذين يتربصون بفـرنسا تلك الدولة التى ساعدتهم فى طرد الإنجليز، وأخذ البعض موقفا طالب فيه بضرورة

المشاركة مع فرنسا فى حروبها على غرار ما صنعته معنا عند حرب الاستقلال وادعى البعض الآخر أن هذا القول يخلو من الجديد، وبرهن على السذاجة وضيق الأفق.. فإن الذى قدم لنا يد المساعدة هو الملك لويس السادس عشر ملك فرنسا ولم يكن لهؤلاء الغوغاء أى دور فى مساعدتنا، ومن ثم إذا أردنا أن نقدم يد المساعدة فوجب علينا أن نساعد حتماً فرنسا لإعادة الملكة والقانون والنظام والشرعية فى فرنسا، وليس العكس الذى لو قمنا به على النحو الذى ينشده البعض لأصبحنا فى مقدمة الجاحدين وناكر المعروف.

على هذا النحو انقسمت الولايات المتحدة على نفسها.. فريق يطالب بالحرب على فرنسا، والآخر يطالب بالوقوف معها..

وخرجت الجماهير فى الشوارع تحمل الأعلام الفرنسية وقد علت أصواتها وصياحتها فى تأنيب وتوبيخ جورج واشنطن، حتى أن المظاهرات الغاضبة كانت محتشدة أمام بيته فى حصار مضروب كاد أن يفتك بحياته إلا إذا أعلن انضمامه لفرنسا ضد أعدائها.

إن جورج واشنطن لم ينس أبدا فضل فرنسا ودورها فى دعم بلاده ضد الإنجليز.. لا لم يكن من هؤلاء الذين ينكرون الفضل ولكنه لم يسقط من ذاكرته أنه وقف مع الإنجليز لمحاربة الفرنسيين وأنصارهم من الهنود.. لقد حارب مع فرنسا وضد فرنسا أيضا، وحارب مع انجلترا وضد إنجلترا، ولكن حروبه كلها كانت من أجل وطنه وشعبه لا من أجل غاية أخرى، إن ما تحتاجه هذه البلاد هو السلام من أجل النهوض بالزراعة والصناعة والتجارة والإنتاج، والارتقاء بمستوى الأفراد وعلو هامة الوطن.

لقد كان جورج واشنطن يعانى من شدة الألم وقد حاول أكثر من مرة إسناد الرئاسة لنائبه جون أدمز، وقد قال جون أدمز:

لقد أغـرورقت عيون الناس وهم يودعـون أول رئيس لهم فى آخر يوم من أيام عمله وتجمعت الناس لاستقباله في كل مكان يتجـه إليه ويهتفون ويصيحون بعبارات الحب والولاء والإطراء حرس الشرف يصطف له فـى كل مكان يذهب إليه وهو ما أدخل السرور فى قلبه، ومن ثم راح يقول:

«إن رضا بلادى عنى لهو أكبر أمنية لى وما كنت أطمح به وأصبو إليه».

وعاد جورج إلى بيته القديم فى ماونت فرنون على ظهر عربة تجرها ثمانية خيول قوية، وذلك بعد أن انتهت ولايته الثانية ليعـود معززا مكرما إلى أسرته التى افتقدها طوال السنوات المنصرمة التى وهب فيها حياته من أجل شعب بلاده.

ورغم بقـائه فى ماونت فـرنون فقـد كانت تصله خطابات عـديدة من المواطنين تستفسر عن صحته وأحواله، ولكن كان المرض بدأ يتغلغل فى جسده.

ورغم بلوغه السادسة والستين فقد شـارك زوجته مارثا الرقص فى اثناء الاحتفال بعيـد ميلاده، وجاء يوم الجـمعة السـادس من ديسمبـر ١٧٩٩ ليكون هو آخر يوم يسجل فيه مذكراته..

كان الثلج قد تسـاقط بغزارة يوم الخميس.. وحين عاد إلى الـبيت لتناول الطعام كانت قطع الثلج تبلل شعر رأسه وتطوق عنقه فتـدهورت صحته يوم السبت ليموت بعد ساعـات مفارقا الحياة تاركـا بصماته المحفورة بعـمق فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت جنازة جـورج واشنطن جنازة مهيـبة وضخـمة، حيث حـضرت الملايين لوداعه وإلـقاء النظرة الأخـيرة على جثـمانه وسط بحـار من الدموع التى نـافست بغـزارتها ثلوج وأمطار الشـتـاء القارص الذى أودى بحـياة الفـارس المغوار جـورج واشنطن.

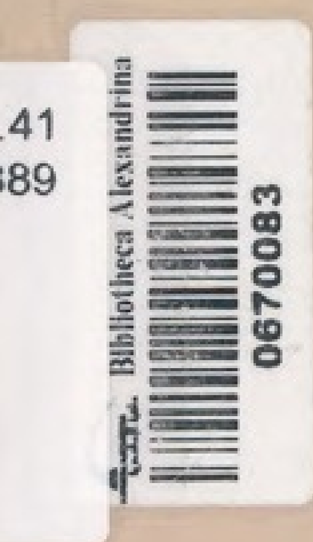
فهرس

الموضوع | صفحة

شخصيات أثرت في التاريخ



جورج واشنطن
مؤسس أمريكا




I.S.B.N. 977-436-077-X
9789774360770

مكتبة النافذة